مكتبة نظام يعقوبي الخاصة - البحرين

سلسلة أعلام وأقلام

(٢)

قاضي الأندلس الملهم.. وخطيبها المفوه

الإمام منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله

(المتوفى سنة ٣٥٥ هـ)

مع تحقيق رسالتين

مخطوطتين من تراثه

تأليف

عبد الرحمن بن محمد الهيباوي السجلماسي



دار البشائر الإسلامية

صورة الغلاف يظهر فيها
محراب المسجد الكبير بقرطبة

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
e-mail:
bashaer@cyberia.net.lb

مكتبة نظام يعقوبي الخاصة - البحرين

سلسلة أعلام وأقلام

(٢)

قاضي الأندلس الملهم.. وخطيبها المفوه

الإمام منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله

(المتوفى سنة ٣٥٥ هـ)

مع تحقيق رسالتين مخطوطتين من تراثه

تأليف

عبد الرحمن بن محمد الهيباوي السجلماسي

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم العلاَّمة البحَّاثة المحقِّق
الدكتـور محمـد ابـن شريفـة
حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّٰه وحده، والصَّلاة والسَّلام على مَن لا نبـيّ بعده.

وبعـد:

فقـد ورَدَ فـي كتـاب الإعـلان للسخـاوي كـلام طيـب منسـوب إلـى أبـي العباس أحمد بن علي الميورقي يقول فيه: «من ورَّخ مؤمناً فكأنما أحياه، ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره»(١).

ولا شك أن مؤلف هذه السيرة قد أحيا بها ذكر إمام جليل، ورُزق التوفيق في عرض أخباره، وحالفه النجاح فيما توصل إليه من آثاره، وقد ذكَّرَنا بما كنا قرأناه وحفظناه في بداية دراستنا من كلام الإمام منذر بن سعيد كخطبته المرتجلة في ذلك الحفل المشهود، وخطبته الوعظية أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر وغيرهما.

وينبغي أن نعترف بأن الباحث الجاد السيد عبد الرحمن هيباوي أطلعنا في هذا العمل الجيد على أشياء جديدة، وقدم إلينا ترجمة موسعة ومحررة للإمام منذر بن سعيد، وقد بذل جهوداً مشكورة في تتبع ما يوجد من أخباره وآثاره المطبوعة والمخطوطة.

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٢٨، طبعة دمشق.

ومما يدعو إلى الأسف فقدان الكتاب الذي ألفه الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في أخبار القاضي منذر بن سعيد، فقد كان أبو عمر بحكم قربه من زمن القاضي منذر عارفاً بأحواله مطلعاً على أخباره، وتكمن قيمة كتابه في كونه تأليف إمام كبير في إمام كبير، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الذين أُفردوا بتراجِم مستقلة في الأندلس كانوا من طبقة الأئمة الكبار كمحمد بن وضاح، وبقي بن مخلد، ومنذر بن سعيد وغيرهم وكان عددهم قليلاً.

لقد استطاع مؤلِّف هذا البحث أن يجمع مادة طيبة ويوزعها توزيعاً جيداً، ويرتبها ترتيباً متقناً، فجاءت فصول الكتاب ومباحثه محكمة البناء، وتميزت بالأسلوب العربي المبين، ووضع الشاهد المناسب في المكان المناسب، وقد يجد القارىء شيئاً من التّكرار في الشواهد والعبارات ولكنه من قبيل التكرار الذي يقول فيه بعضهم:

قالوا المكرر فيه   قلت المكرر أحلى

ولو وصلت إلينا مؤلفات القاضي منذر أو بعضها لكانت فيها مادة كثيرة لا تترك مجالاً لأي تكرار، ومن الدارسين من يعمد حينما تكون المادة محدودة إلى التحليلات الفضفاضة، ولكن السيد عبد الرحمن هيباوي لم يسلك هذا المسلك، فكان في تناوله محترزاً يلتزم الضبط ولا يتجاوز حدود النص، وإن كان يناقشه أحياناً كما فعل في مسألة اتهام منذر بالاعتزال على سبيل المثال.

وقد تحدث الباحث عن تفسير القاضي منذر وضياعه وذكر ما ظفر به من نقول عنه لا تتجاوز ثلاثة، ولست أدري هل استقصى هذا الموضوع أم لا، فقد عقد ابن الأزرق الغرناطي في كتابه روضة الإعلام مبحثاً حول

منع المُحدث من مس المصحف الكريم واستدلال العلماء القائلين بذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾، وأتى بكلام لابن الفخار من مسائله النحوية فيما يحتمله النظر في الآية الكريمة على مقتضى القواعد العربية، وهل الضمير في يمسه يعود على الكتاب أم على القرآن؟ وهل لا للنفي أم للنهي؟ إلى آخر كلام ابن الفخار الذي أورده ابن الأزرق باختصار وعقد بعده العنوان التالي: (تنبيه على وهم، ثم قال: «زعم القاضي منذر بن سعيد في تفسيره أنه لم يرد بقوله: «لا يمسه» النهي عن أن يمس القرآن من ليس بطاهر، ولو أراد ذلك لكان الخطاب لحناً لأنه لو أراد الأمر لقال: «لا يمسَّه» بفتح السين وتشديدها أو «لا يمسنه» أو «لا يمسسه» مما يدل على التحريم).

قال ابن الفخار: (انظر إلى هذا الإمام على جلالة قدره كيف غفل عن هذا الأصل من العربية وبناه على ما لم يحط به علماً، لأن الله لم يرد النهي بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾، مع إجماع العلماء على أن ترك الاتباع لما قبل والعدول عنه إلى حكم ضمير الغائب لغة الفصحاء من بني تميم، وبالله التوفيق، نسأله تعالى أن يوزعنا شكر ما علَّمنا)[1].

ويبدو من هذا أن تفسير القاضي ظلَّ معروفاً ومتداولاً بالأندلس حتى أواخر القرن التاسع للهجرة، وأن فيه اجتهادات من مثل ما ذكره ابن حزم وابن الفخار.

---

(١) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام ٢/ ٥٦٣، تقديم وتحقيق: سعيدة العلمي. منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ١٩٩٩م.

وبعد فقد شكى القاضي منذر ذات مرة من زهد الأندلسيين في علماء بلدهم وإقبالهم على الغرباء فقال:

لـو كنـت فيهم غريبـاً كنت مطّـرَفـا ... لكنني منهــم فـاغتـالنـي النكـد

لـولا الخـلافـة أبقـى الله بهجتهـا ... مـا كنت أبقـى بـأرض مـا بهـا أحـد

وها هو أحد أبناء بلده الأصلي يقوم بعدما يقرب من أحد عشر قرناً على وفاته بإحياء ذكره وكتابة سيرته إعجاباً بشخصيته، واعترافاً بعلمه، فأنجز بعمله هذا أول ترجمة مفصلة لهذا الإمام المجتهد كانت المكتبة الإسلامية في حاجة إليها.

وإننا في آخر هذا التقديم الموجز ندعو له بالنجاح والفلاح، ونرجو أن يكون لهذه الباكورة ما بعدها، وبالله التوفيق.

محمد ابن شريفة(١)

---

(١) عالم محقق، وأديب ناقد، ولغوي بارع، ومؤرخ مقتدر، يعد أحد أعمدة المدرسة المغربية المعاصرة، بل والعالم العربي عامة في تحقيق التراث ودرسه ونشره.
وُلد أستاذنا ــ حفظه الله ــ سنة ١٩٣٠م بإقليم الجديدة، ثم توجه في صباه إلى مدينة آسفي فحفظ القرآن الكريم هناك ودرس بعض المتون العلمية في الفقه واللغة مع شروحها على الطريقة الأصيلة، وقد ظهرت عليه علامات النجابة والنبوغ، فتوجه بعد ذلك إلى جامع ابن يوسف بمراكش الشامخة، وكان ذلك الجامع من أبرز مراكز الإشعاع العلمي والمعرفي، ولما تخرج فيه التحق بجامعة محمد الخامس بالرباط، فحصل على الإجازة عام ١٩٦٠م، وبعد أربع سنوات من حينه نوقشت بالجامعة أول رسالة ماجستير في الأدب العربي وكان هو صاحبها، وفي سنة ١٩٦٩م حصل على الدكتوراه بجامعة القاهرة. =

= وبعد هذه المسيرة العلمية الحافلة شهدت الساحة العلمية تعاقب عدة مؤلفات للدكتور تتجلى من خلالها مكانته السامقة في البحث والتتبع، ومقدرته الباهرة في الصناعة التاريخية ببعث تراجم لأشخاص مغمورين لم تحفل بهم كتب الأعلام والتراجم وغيرها.

كما أن له في مجال تحقيق النصوص وإخراجها أعمالاً تدل على شدة تمكنه، وعمق فهمه، وسعة اطلاعه، وهو في هذا وذاك مدرسة وحده، وقد صدر له من المؤلفات حتى الآن ما يناهز الثلاثين، وله عدة أبحاث في الدراسات الأدبية، وفي تحقيق النصوص، وفي الفكر الإسلامي، والتاريخ والتراجم وغير ذلك، وقد بلغت في مجموعها ما يقارب الثمانين بحثاً.

وأُسندت إليه العديد من المناصب المهمة، فقد اختير عميداً لجامعة محمد الأول بوجدة، ثم محافظاً على خزانة القرويين بفاس، والخزانة العامة بالرباط، وهو في الوقت نفسه عضو بالعديد من المجاميع العلمية، منها مجمع اللغة العربية بدمشق، وأكاديمية المملكة المغربية، كما حاز على العديد من الجوائز الثقافية منها جائزة الملك فيصل في الآداب عام ١٩٨٨م.

المقـدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك الحق المبين، حمداً يليق بجلاله، وبعظيم سلطانه ومجده، وأشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيُّه وخليله، شهادةً أدَّخرها لهول السؤال، وأصلِّي وأسلِّم عليه صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم البعث والنشور، وعلى آله الأخيار، وصحبه الأبرار، سُرج الهدى، ومصابيح النور.

وبـعـد:

فتأتي هذه الرسالة حلقة وصل بيننا وبين ماض تليد، زاخر بمجموعة مـن الرجال العـظام، والعلماء الأعـلام، الذيـن تركـوا بصمـاتهم ظاهـرة على صفحـات التاريـخ الإسلامي المشـرق بالغـرب الإسلامي الذي أنتمي إليـه، فأحسست بدوافـع قويـة لتَخْصيص بحـث يستـوفي مسيـرة أحدهم، وكـان اقتـراح أخينـا الفـاضـل والبـاحـث القـديـر عبـد اللطيـف الجيـلانـي بالكتابة حول عالم فذّ وقاض ملهم، هو القاضي أبو الحكم منذر بن سعيد البَلُّوطي (ت ٣٥٥هـ) أحـد كبـار أعـلام الأنـدلس السليبـة ـ أعادها الله ـ التي كانت في ذلك الزمن برجالها منبعاً من منابع العلم، ومعقلاً لحضارة إسلامية مشعة.

يقول ابن غالب: «اعلم أن فضل أهل الأندلس ظاهر، كما أن حسن بلادهم باهر»[1].

ويقول ابن الحِجَاريّ: «الأندلس عراق المغرب عزة أنساب، ورقة آداب، واشتغالاً بفنون العلم، وافتناناً في المنثور والمنظوم، لم تضق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة»[2].

ويقول ابن حزم في رسالته عن الأندلس: «... فإن قرطبة مسقط رؤوسنا كان أهلها من التمكن في علوم القراءات، والروايات، وحفظ كثير من الفقه، والبَصَر بالنحو والشعر، واللغة، والخبر، والطب والحساب والنجوم بمكان رَحْب واسع القَطَن، متنائي الأطراف، فسيح المجال».

ثم سرد رحمه الله أسماء كثير من العلماء ودواوينهم، وفاخر بهم غيرهم من المشارقة حتى قال: «ومنها ــ الكتب ــ في أحكام القرآن كتاب أمية بن الحجاري... وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد البلُّوطي، وكان داودي المذهب، قوياً على الانتصار له، وكلاهما في أحكام القرآن غاية... وإذا نعتنا منذر بن سعيد لم نُجَار به إلاَّ أبا الحسن بن المفلس، والخَلَّال والدِّيبَاجي ورُوَيم بن أحمد»[3].

فإحياءً لسيرة هذا الإمام الكبير، الذي لم يُنْصَف ولم يُعْطَ حقه في الدراسات المعاصرة رغم منزلته العلمية الرفيعة، وجهوده العظيمة، في مسيرة العلم والحضارة، ورغم تبوئه لمناصب عالية إبان الفترة الذهبية للأندلس، من اعتلاء خطة الإمامة والخطابة بالمسجد الجامع بالزهراء،

---

(١) نفح الطيب ٣/ ١٥٠.

(٢) نفسه ٣/ ١٥٥.

(٣) نفسه ٣/ ١٥٦ ــ ١٧٨.

وتولي أعلى منصب قضائي بالأندلس، قضاء الجماعة، مما كان له كبير الأثر على الحياة العامة، إضافة إلى أننا نجد مصادر تراجم الرجال قد اهتمت به اهتماماً بالغاً، وأفردت له صفحات عديدة، ودوَّنت آراءه كتب التفسير والفقه والقضاء واللغة وغيرها، بل إننا نجد الحافظ ابن عبد البر، أفرد كتاباً للحديث عن القاضي منذر وأخباره، أما ابن حزم في رسالته المتقدمة فقد فاخر به وبكتبه وجعله من أبرز من أنجبت الأندلس.

إحياءً لهذا كله، واعترافاً بالفضل لأهله، وسدًّا للفراغ الحاصل، كان لزاماً أن أضع هذه الدراسة حول هذا الإمام الفذ صاحب المواقف العظيمة، والفضائل الجسيمة، لعلها تزيد المكتبة الإسلامية غناءً وثراءً.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن أقسمه إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة وفق ما هو مذكور في فهرس الموضوعات تفصيلاً، وملخص ذلك: أن التمهيد اشتمل على بيان موجز لحالة بلاد الأندلس في عصر القاضي منذر بن سعيد من الناحيتين السياسية والعلمية، لارتباط هذين المجالين بحياة القاضي منذر تأَثُّراً وتأثيراً.

وتناولت في الفصل الأول سيرة القاضي أيام النشأة والطلب، مبرزاً التعريف بهويته من حيث: اسمه ونسبه، وتاريخ ولادته، وعقيدته ومذهبه، وذكرت تكوينه العلمي من خلال طلبه للعلم ورحلته وشيوخه ومروياته.

وتعرضت في الفصل الثاني إلى بيان عطاءات منذر وإنجازاته، مُركِّزاً على مناصبه وأعماله من تدريس وإفتاء وخطابة وقضاء، ودوره في الإصلاح السياسي، ثم عرَّجت على أشهر تلاميذه، والمؤلفات التي أثرى بها المكتبة الإسلامية، مع بيان مكانته العلمية.

وتطرقت في الفصل الثالث إلى صفات منذر الخلقية السامية، وانتهيت بخاتمته والثناء عليه.

كما أرفقت البحث بتحقيق رسالتين مخطوطتين نادرتين للقاضي منذر بالخزانة العامة بالرباط:

الأولى: تتعلق بكتابه إلى بعض إخوانه فيمن أَنْكَر عليه تحويلَهُ الرداءَ في الخطبة الأولى من خطب الاستسقاء.

والثانية: تتعلق بنقده لوثيقة عقدها بعض أهل العلم في إسلام نصراني.

وجاءت الخاتمة بياناً لأهم نتائج البحث.

وقد سلكت في دراستي هذه مجموعة من المناهج، تكاملت وظائفها لتحقق الغرض من هذه الترجمة وإبرازها بالشكل المفيد.

فقد اعتمدت على المنهج التاريخي في جمع المادة العلمية من مظانها الأصيلة وترتيبها ترتيباً تاريخياً، مع التدرج في دراسة الشخصية، كما اعتمدت المنهج الوصفي في النظر للمصادر المتصلة به نظرة تفحصية، والاستفادة مما ورد فيها، وحسن توظيفه، مع الاعتناء بالظواهر الخاصة بأبي الحكم القاضي.

واستفدت من المنهج التحليلي، وذلك من خلال الجمع بين الأقوال وتحليلها والمقارنة والاستقصاء والترجيح بما يبدو أنه الصواب.

وفي الختام أشكر الله العلي القدير أنْ منَّ عليَّ بفضله وكرمه على إتمام هذا العمل، فله كمال الحمد والمنة.

كما أشكر كل من أعانني على إتمام هذا البحث، ويسَّر لي مصاعبه وعقباته، وأخص بالذكر العلامة المحقق وأستاذنا المقتدر محمد بن شريفة الذي شُرِّفت هذه الدراسة بتقديمه البديع وبملحوظاته الدقيقة، كما أشكر أخي وبلديِّي عبد اللطيف الجيلاني الذي يشهد كل حرف على ما بذله حتى استوى هذا العمل على سوقه، وأشكر الباحث المقتدر الأستاذ عبد العزيز الساوري الذي أفدت من معلوماته القيمة، وأتقدم بالشكر المفعم بالتقدير إلى الشيخ الدكتور نظام يعقوبي الذي تفضل بنشر هذا البحث ضمن سلسلاته العلمية النافعة، وإلى خادم العلم وأهله الأستاذ الفاضل رمزي دمشقية صاحب دار البشائر الإسلامية.

وأخيراً، فإنني أعتذر عن كل تقصير أو خلل، وأسأل الله أن يسددنا ويوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح.

«اللّٰهم فَرِّغْنِي لما خلقتني له، ولا تُشْغلني بما تَكَفَّلْت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين»(١).

وأصلِّي وأسلِّم على الرحمة المهداة والنعمة المسداة سيد الخلق أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

عَبْدُ الرَّحْمٰن بْن مُحَمَّدٍ الهِيَاوِي السِّجِلْمَاسِيّ

في الروضة النبوية الشريفة، المدينة المنورة

الخميس ١٥ محرم الحرام سنة ١٤٢٠ هجرية

(١) من أدعية القاضي منذر بن سعيد عليه رحمة الله.

التمهيد

بلاد الأندلس في عهد القاضي منذر

عاش القاضي منذر في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري وأكثر من نصف القرن الرابع (٢٧٢ ـ ٣٥٥) في وقت كانت الأندلس تخضع لدولة بني أمية الثانية التي تمكن عبد الرحمن بن معاوية الملقب بصقر قريش (١٣٨ ـ ١٧٢) من تأسيسها بعدما دخل الأندلس فارًّا من بطش العباسيين[١] الذين هوت الدولة الأموية الأولى بدمشق على أيديهم.

ومنذ تأسيس هذه الدولة الفتية الرابضة في أقصى الغرب الإسلامي، وهي تكابد وتدافع من أجل الاستمرار والسيطرة على الأندلس التي كانت مليئة بالفتن والاضطرابات المتعددة بسبب محاذاتها لبلاد النصارى وقلة التجانس بين أبنائها نظراً للتنوع العِرقي، وعدم تَغَلْغُل الإسلام في قلوب كثير ممن كانوا حديثي عهد بكفر.

وقد وافق منذر في حياته تعاقب أربعة حكام على العرش الأموي وعاش أزهى فترات عمره أيام حُكْم الناصر الذي استطاع أن يجعل من إمارة بني أمية خلافة مهابة الجانب بعد أن كادت تستأصل من جذورها

(١) انظر: جذوة المقتبس للحميدي، ص ٨، ٩.

بفعل الفتن المتلاحقة، ومن ثم يمكن تقسيم طبيعة الحكم الأموي الذي عاش في ظله منذر بالأندلس إلى مرحلتين:

* **المرحلة الأولى:**

وهي فترة الضعف وما قبل الخلافة وتضم من الحكام المنذر بن محمد، وعبد الله بن محمد، وقد عاصرهما القاضي منذر أيام النشأة والطلب.

أولاً ـ إمارة المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ):

وهو سادس حكام الدولة الأموية، وكانت فترة حكمه قصيرة جدًّا، دامت سنتين إلاَّ أياماً[١]، وعلى الرغم من قصر مدته إلاَّ أنها كانت حافلة بأحداث جسام أهمها الثورات المتوالية على الحكم الأموي المدعومة من الدويلات النصرانية بالشمال، فلم يستجب لمطالبها الانفصالية بل قام لها بقلب شجاع، وآل على نفسه ألا يرتاح حتى يخمدها، لكن المنية عاجلته قبل إتمام ما عزم عليه، وقد توفي[٢] وهو محاصِر لأخطر زعماء الخارجين عليه ويدعى ابن حفصون بحصن بُبَاشْتر[٣].

ثانياً ـ إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ):

ولي بعد أخيه المنذر، وفي عهده استفحلت الفتن واتسعت الثورات حتى كادت تقضي على دولة بني أمية، حيث خرجت عليه جميع بلاد الأندلس ما عدا قرطبة، وصار في كل جهة

---

(١) انظر: تاريخ العلماء لابن الفرضي ١/ ١٤، والجذوة ص ١٢، والبيان المغرب لابن عذارى ٢/ ١١٣.

(٢) وقيل: إنه قتل مسموماً. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣٣.

(٣) ترسم أيضاً ببشتر.

متغلِّب[1]، ولم تزل الأندلس كذلك حتى وفاته سنة ٣٠٠هـ[2].

* المرحلة الثانية:

وهي فترة الازدهار وإرساء دعائم الخلافة وتضم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وابنه الْحَكَم المستنصر، وفي عهدهما سطع نجم القاضي منذر وكثرت إنجازاته العلمية، وارتقى أعلى المناصب.

أولاً ـ خلافة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ):

هو عبد الرحمن بن محمد بن الأمير عبد الله، كان والده محمد قد قتله أخوه المطرف في صدر دولة أبيهما عبد الله، وعُمْرُ الناصر آنذاك عشرون يوماً[3].

وقد تولى الناصر زمام دولة الأندلس، وله من العمر اثنتان وعشرون سنة، حيث كانت مبايعته بعد وفاة جده مباشرة (وكانت ولايته من الغريب؛ لأنه كان شاباً وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون، فتصدى إليها وحازها دونهم)[4].

ووجد الأندلس جَمْرة تَحْتَدِم، وناراً تَضْطَرِم شقاقاً ونفاقاً، فأخمد نيرانها، وسكَّن زلزالها، وقاتل المخالفين حتى أَذْعَنوا، واستنزل الثوار، ومحا أثر ابن حفصون، وحمل أهل طليطلة على الطاعة، وكانوا معروفين بالخلاف والانتقاض.

---

(١) انظر: المعجب للمراكشي، ص٥٣، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٨٨.
(٢) البيان المغرب ٢/ ١٢٠.
(٣) انظر: الجذوة ص ١٣.
(٤) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٩٨.

وكان الناصر إماماً ذكياً. . . صارماً ذا عبقرية، وحنكة سياسية[1]، فازدهرت البلاد في عهده، وعلا شأن الأندلس، وكان رحمه الله موقراً للعلماء والفقهاء رافعاً لشأنهم، وفي فترة حكمه اشتهر أمر القاضي منذر وانتشر بعدما ولاّه قضاء الجماعة بقرطبة حينما توطدت العلاقة بينهما إلى حد بعيد[2].

ولما بلغ الناصر ضعف الخلافة في العراق، وظهور الرافضة بالقيروان، تسمى بأمير المؤمنين[3]، وهو من أول من دعي له بالخلافة في الأندلس، واتصلت ولايته إلى أن توفي سنة ٣٥٠هـ.

ثانياً ـ خلافة الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ):

وقد ولي الخلافة بعد أبيه عبد الرحمن، وكان إماماً حسن السيرة جامعاً للعلوم مُجِلاًّ لأهلها، فعمَّ في عهده الرخاء، وازدهر العلم وانتشرت فنونه، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده[4].

ولما تولى أقر القاضي منذر على خطتي القضاء والصلاة، واستمر على ذلك إلى أن توفي منذر بعد خمس سنوات من حكم المستنصر.

* * *

(١) أما ابن حزم فيرى أن الناصر كان من الجبابرة الطغاة. انظر: المقتبس لابن حيان ٥/٣٧.

(٢) سيأتي تفصيل ذلك في فصول الترجمة.

(٣) الجذوة، ص ١٣، والإحاطة لابن الخطيب ٣/ ٤٦.

(٤) انظر: الجذوة، ص ١٣، والمعجب، ص ٧١.

[من مشاهير علماء هذه الفترة]:

لمَّا كانت الدولة الأموية تولي العلم عناية فائقة، وتكرم العلماء وترفع من شأنهم، فإن الحياة العلمية ازدهرت، وكثر العلماء، وشاعت التصانيف، وقويت الرحلات العلمية، وتعددت مجالس العلماء ونوادي الأدباء وكثر روادها، ومن مشاهير العلماء الذين عاشوا في هذه الفترة بقرطبة:

* **أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي:**

إمام اللغويين والأدباء في زمانه، وصاحب التصانيف المفيدة التي فاقت غيرها منها: «الأمالي»، و«البارع»، و«تفسير السبع الطوال» وغيرها، وُلد رحمه الله بمنَازْجِرْد من ديار بكر سنة ٢٨٨هـ، ووفد على الناصر بقرطبة فاستقر بها وعلا صيته، وكانت تربطه بمنذر علاقة وُدٍّ ومعرفة، توفي رحمه الله بقرطبة سنة ٣٥٦هـ[(١)].

* **أبو محمد قاسم بن أصبغ البَيَّاني:**

إمام من أئمة الحديث، حافظ، مكثر، له المصنفات المشهورة منها: «المجتبى على المنتقى»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«غرائب حديث مالك بن أنس»، و«فضائل قريش» (ت ٣٤٠هـ)[(٢)].

* **أحمد بن مطرف بن عبد الرحمن، المعروف بابن المشَّاط:**

كان إماماً عالماً معتنياً بالآثار والسنن، زاهداً، ورعاً، تولى الصلاة بقرطبة، وسمع منه الناس كثيراً (ت ٣٥٢هـ)[(٣)].

---

(١) انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ١٨٥ ــ ١٨٨.

(٢) الجذوة، ص ٣١١.

(٣) تاريخ العلماء ١/٥٦، ٥٧.

* **عبد الله بن محمد بن حسين المعروف بابن أخي ربيع:**

كان معتنياً بالحديث إماماً فيه، بصيراً بعلله، حسن التأليف للكتب، له مؤلفات عدة، روى الناس عنه بالمشرق والأندلس (ت ٣١٨هـ)(١).

* **إسحاق بن إبراهيم بن مسرة:**

كان حافظاً للفقه على مذهب مالك وأصحابه متقدماً فيه، وكان مشاوراً في الأحكام؛ صدراً في الفتيا، وكان يناظر عليه الفقه، وقد حدَّث وسمع منه جماعة من الناس، وكان وقوراً مهيباً (ت ٣٥٢هـ)(٢).

* **محمد بن إسحاق بن منذر بن السليم:**

قاضي الجماعة بعد منذر بن سعيد، كان حافظاً للفقه بصيراً بالاختلاف عالماً بالحديث، ضابطاً لما رواه، متصرفاً في علم النحو واللغة، حسن البلاغة؛ وكان حسن الخلق متواضعاً (ت ٣٦٧هـ)(٣).

* **محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية:**

كان عالماً بالنحو، حافظاً للغة، متقدماً فيها على أهل عصره، لا يشق غباره، ولا يلحق شأوه، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه، وتؤخذ عنه، وله مؤلفات حسان جدًّا، منها: كتاب «تصاريف الأفعال»، وكتاب «المقصور والممدود» وغيرها (ت ٣٦٧هـ)(٤).

❏ ❏ ❏

---

(١) نفسه ١/ ٢٦٢، ٢٦٣.

(٢) نفسه ١/ ٨٧، ٨٨.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس ٢/ ٧٨، ٧٩.

(٤) تاريخ العلماء ٢/ ٧٨، ٧٩.

الفصل الأول
القاضي منذر، نشأته وطلبه للعلم

مـدخـل:

يعد القاضي منذر بن سعيد رحمه الله أحد مشاهير علماء الأمة وفقهائها الذين أخلصوا لله تعالى في قصدهم، وجمعوا بين العلم والعمل، مـع النجـابـة وحسـن السيـرة، حتـى بلغـت شهـرتـه آفـاق بـلاد المغـرب والمشرق، واعتزت به بلاد الأندلس فصارت بالعلم والعلماء معقلاً من معاقل الحضارة الإسلامية المشعة على العالم.

ونظـراً لمكـانـة هـذا العـالـم الفـذ والقـاضـي الملهـم، فـإن العلمـاء المتقدمين حرصوا على الترجمة له تبعاً واستقلالاً، فقد عَرَّفوا به، وأشادوا بعلمه وفضله، في أثناءِ كتب تراجم القضاة، والفقهاء، والأدباء، والنحاة، والشعراء، وفي كتب التاريخ العام، وتواريخ البلدان، كما سيأتي بيان ذلك في مصادر ترجمته.

أما ما أفرد في ترجمة القاضي منذر من إنتاج المتقدمين فهو كتاب واحد:

* «منـذر بـن سعيـد البلـوطـي وأخبـاره»، لـلإمـام أبـي عمـر

ابن عبد البر[1]، وهو كتاب مفقود للأسف، ولو عثر عليه لَسَدَّ ثغرة كبيرة في معرفة جوانب عدة من حياة هذا الإمام؛ لكون ابن عبد البر يعتبر من تَلامِيذِ تلامِيذِ منذر ومن أكابر أئمة الإسلام وفحوله الأعلام، ويظهر أنه أراد من عرض سيرة هذا الإمام العطرة إعطاء صورة مشرقة لعلماء عصره ومن بعدهم تكون محلاً للاقتداء، ومثلاً أعلى لما يجب أن يكون عليه صاحب الفكر البناء[2].

وأما المعاصرون فإنه لم ينم إلى علمي أن أحداً كتب شيئاً في التعريف بهذا الإمام الجليل فضلاً عن كتابة دراسة شاملة عنه، وبهذا يتبين أن الجهود السابقة في التعريف بالقاضي منذر إما مفقودة، أو متناثرة في طيات الكتب بحيث يعسر الوقوف على جميعها، فكان لزاماً أن نبذل الوسع في جمع ما تفرق، مع الترتيب التاريخي لمجريات الأحداث والوقوف عند المحطات المهمة في حياة القاضي، وإبراز كل ما يفيد في تشييد الصورة المعبرة عن خصائص شخصيته، ولعل هذه الدراسة تكون مرآة عاكسة لذلك، ولبنة تسد تلك الثغرة بكرم الكريم سبحانه.

❊ ❊ ❊

(١) نسبه إليه ابن الأبار في التكملة ١/ ١٥٢.

(٢) انظر: ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٣١٥.

المبحث الأول

هوية منذر بن سعيد والتعريف به[1]

هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البَلُّوطي أبو الحكم، حجة الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام، القاضي الملهم، والفقيه المجتهد،

---

(١) انظر مصادر ترجمة منذر بن سعيد: قضاة قرطبة، ص ١٨٥، ١٨٦، وطبقات النحويين للزبيدي، ص ٢٩٥، ٢٩٦، تاريخ العلماء والرواة ٢/ ١٤٢، ١٤٣، المُغرب في حلي المغرب ١/ ١٨٣، جذوة المقتبس، ص ٣٢٦، ٣٢٧، بغية الملتمس، ص ٤٦٥، ٤٦٦، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٥٥ ــ ٥٨، مطمح الأنفس، ص ٢٣٧ ــ ٢٥٩، معجم الأدباء ٥/ ٥٢١ ــ ٥٢٧، معجم البلدان ١/ ٥٨٣، إنباه الرواة ٣/ ٣٢٥، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ص ٣٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٣ ــ ١٧٨، العبر ٢/ ٩٦، البداية والنهاية ١١/ ٣٤٧، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص ٢٢٦، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٣٠٩ ــ ٣١١، المرقبة العليا، ص ٦٦ ــ ٧٥، بغية الوعاة ٢/ ٣٠١، الروض المعطار، ص ٩٥، ٩٦، طبقات المفسرين ٢/ ٣٣٢ ــ ٣٣٧، أزهار الرياض ٢/ ٢٧٢ ــ ٢٨١، ٢٩٤ ــ ٢٩٧، نفح الطيب ١/ ٣٦٤ ــ ٣٧٦، ٥٧٠ ــ ٥٧٦، ٢/ ١٦ ــ ٢٢، ٥١١، ٣/ ١٦٩، شذرات الذهب ٤/ ٢٨٩، مرآة الجنان ٢/ ٣٥٨، هدية العارفين ٢/ ٤٧٢، شجرة النور الزكية، ص ٩٠، الترجمة رقم ٢٠٠، الأعلام ٧/ ٢٩٤.

والخطيب المِصْقَع المُفَوَّه، كان رحمه الله مناظراً حاذِقاً، وأصولياً لغوياً مفسراً دقيقاً، ورعاً تقيًا، آمراً بالمعروف وعن المنكر ناهياً، له التصانيف الحسان جدًا.

وُلد بقرطبة سنة ٢٧٣هـ، ونشأ بها واتجه لدراسة علوم الشريعة واللغة وأتقنها، وتولى الخطابة بجامع الزهراء، وقضاء الجماعة بقرطبة، له الخطب المفحمة، والمواقف الجليلة، والآراء السديدة، توفي رحمه الله بقرطبة سنة ٣٥٥هـ، وبها دفن.

هذه هوية منذر باختصار، وسيرته بإيجاز، وسوف نقسمها إلى فصول ومباحث نلقي الضوء من خلالها تفصيلاً على أبرز خصائصه وأعماله التي شغلت حياته، ومجمل المؤثرات والعوامل التي أسهمت في بناء شخصيته.

أولاً: اسمه ونسبته:

اسمه ونَسَبُه: منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله، كما هو عند ابن الفرضي[١]، وذكر الرُّشاطي والبناهي بدل «قاسم بن عبد الله» قاسم بن عبد الملك بن نجيح[٢].

نِسْبته: الكزني، البلوطي، القرطبي، الداودي.

فهو الكُزنيّ ـ بضم الكاف ـ نسبة إلى فخذ من البربر يقال له: كزنة[٣]، وفي جمهرة ابن حزم ينتهي في نسبه إلى قبيلة سوماتة[٤]، أما صاحب مفاخر البربر فإنه يذكر نسب منذر هكذا: «منذر بن سعيد بن

(١) انظر: تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢.

(٢) انظر: اقتباس الأنوار، ص ٣٧، والمرقبة العليا، ص ٦٦.

(٣) تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢.

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٥٠٠.

عبد الله القاضي البلوطي الْوَلْهَاصِي، ولهاص: اسم رجل، وهو ولهاص بن يطوفت بن نَفْزاو بن لُؤَي الكبير بن رحيك بن مادغس بن بَر»[١]، وفي موضع آخر أخذ يعدد القبائل البربرية، فقال: «ولهاصة منهم القاضي منذر بن سعيد»[٢]، وهذا يشكل مع ما ذكره ابن حزم، لأن سماتة أخ لولهاص أو ألهاصة كما يسميها ابن حزم حيث أن كلاًّ منهما من ولد يطوفت الذي أنجب من الولدان إحدى عشر، فهو إذاً إما أن يكون سماتياً أو ولهاصياً حسب ما بدا لي، والله أعلم.

والبلوطي: نسبة إلى فَحْص البلوط، موضع قريب من قرطبة، بينه وبينها مرحلتان أو ثلاث، وينسب منذر إليه؛ لأن أصله من هناك[٣].

القرطبي: نسبة إلى قرطبة، عاصمة الأندلس التي وُلد بها ومات.

الداودي: منسوب إليه؛ لانتصاره لمذهب داود بن علي الظاهري، وقد اختار منذر هذا المذهب، ودرج عليه في الرأي والتأليف وإن كان لا يتقيد به[٤]، بحيث إذا جلس مجلس الحكم والقضاء، أخذ بمذهب الإمام مالك.

---

(١) مفاخر البربر مخطوط بالخزانة العامة بالرباط لمؤلف مجهول تحت رقم ١٠٢٠د/ ل: ٣٤ ب ل.

(٢) نفسه ل: ٤١ ب.

(٣) انظر: وهج الجمر في تحريم الخمر لابن دحية، لوحة ١٢ ب مخطوط بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، برقم ١٣٩ (١/ ٢١ حديث)، والروض المعطار، ص ٤٣٥، ٤٣٦، ومعجم البلدان ١/ ٥٨٤.

(٤) قال ابن دحية: «الداودي مذهباً مع معرفته بمذهب مالك وغيره من الفقهاء»، وهج الجمر.

ثانياً: كنيته، ولقبه:

كنيته: أبو الحكم؛ لأن له ابناً يسمى الحكم، ولم أجد له كنية غيرها إلاَّ ما ورد في منح المنية في شرح الكنية من تكنيته بأبي عبد الله[1].

أما لقبه: فيلقب بالفقيه نظراً لتضلعه في الفقه وتمكنه فيه، حتى بلغ درجة الاجتهاد.

كما يلقب بقاضي الجماعة، وهو أشهرها نظراً لتوليه القضاء منذ فترة مبكرة من عمره متنقلاً بين مدن الأندلس وكُوَرِها، حتى انتهى به المطاف إلى اعتلاء أعلى منصب قضائيّ في الأندلس، وهو قضاء الجماعة لما تميز به رحمه الله من قوة في الشخصية، وثبات في الحق، ورشد في الرأي، ورصيد علمي وفقهي رفيع.

ثالثاً: ولادته:

وُلد سنة ثلاث وسبعين ومائتين على ما ذكره ابن الفرضي وابن خاقان[2]، وذكر صاحب نفح الطيب نقلاً عن ابن سعيد أنه ولد سنة خمس وستين ومائتين[3]، واعتمد هذا التاريخ أيضاً الذهبي في سيره[4]، وياقوت في معجمه[5]، والصواب: القول الأول نظراً لأصالة المصادر

---

(١) منح المنية في شرح الكنية للمكي محمد بن علي مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢٩٥١ د، ص ٤٣.

(٢) انظر: تاريخ العلماء ٢/ ١٤٣، مطمح الأنفس، ص ٢٣٨.

(٣) انظر: نفح الطيب ١/ ٣٧٢.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧٨.

(٥) انظر: معجم الأدباء ٥/ ٥٢١.

وقرب عهد مؤلفيها بحياة منذر، إضافة إلى ما ذكروه من كون ولادته إنما كانت في عهد الحاكم الأموي المنذر بن محمد الذي كانت فترة حكمه ما بين سنتي (٢٧٣ ـ ٢٧٥).

وأما الخشني فقد ذكر في كتابه قضاة قرطبة أن منذراً توفي عام ٣٥٥هـ، وعمره أربع وثمانون سنة[١]، فعلى هذا يكون مولده سنة ٢٧١هـ، ويظهر لي والله أعلم أن الخشني وهم في العد خصوصاً وأنه لم يشر إلى تاريخ ولادته صراحة، بل اكتفى بذكر مبلغ عمره حين وفاته، أو هو خطأ من النساخ.

أما مكان ولادته فالظاهر أنه قرطبة، أُمُّ مدائن الأندلس وعاصمتها[٢].

رابعاً: أسرته:

ينتمي منذر بن سعيد في أصوله إلى قبيلة بربرية تدعى كُزْنَة استوطنت فحص البلوط، ثم انتقل أبوه بعد ذلك إلى قرطبة، ولم توفنا المصادر بشيء يذكر عن سعيد والد القاضي إلاّ أن طبيعة أسرته تكشف أنه كان رجلاً فاضلاً من أهل الصلاح والتقى، شديد العناية بتنشئة أبنائه على هدي الإسلام ومكارم الأخلاق، محباً للعلم وأهله؛ إذ كل هذه الأوصاف نجدها مثمرة لأسرة طيبة تضم بين جنباتها قاضي الأندلس وفقيهها الإمام

---

(١) قضاة قرطبة، ص ١٧٦.

(٢) وهذا ما يظهر من قول ابن دحية بأن منذراً ما نسب لفحص البلوط إلاّ لنزول أجداده به. انظر: وهج الجمر في تحريم الخمر: مخطوط بالمكتبة المحمودية تحت رقم ١٣٩ (١/ ٢١ حديث)، لوحة: ١٢ ب.

منذر بن سعيد، وأخته الفاضلة العالمة أم الحسن[1] والتي كانت من خيرات النساء فاضلة متعبدة، يقصدها صوالح النساء للذكر والتفقه في الدين ودراسة سير العابدين، فكان لها ببلدها شأن كبير، كما نجد في هذه الأسرة أخاً لمنذر يسمى بـ: زغلل كان له ابن مشارك في العلم[2].

وإذا نزلنا إلى أسرة الإمام الصغيرة وجدنا المصادر تذكر أن القاضي منذراً رحمه الله رُزِق بثلاثة أبناء هم: الحكم، وسعيد، وعبد الملك وقد بذل الإمام جهده في تربيتهم وتعليمهم حيث كان الثلاثة جميعهم من رواة علمه وحملته، وسيأتي الحديث عنهم تفصيلاً عند الكلام عن تلاميذ منذر.

وإلى جانب العلاقة العلمية بين منذر وأبنائه المتسمة غالباً بالجد والحزم، كانت تربطه بهم علاقة أبوية مليئة بالعطف والحنان، وكان يتعهدهم الفينة بعد الأخرى بممازحات تجلوا الصدأ، وتوثق عرى المحبة، ولنسمع لابنه سعيد يحدثنا عن شيء من ذلك قائلاً: «قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم مع أبينا للإفطار، فإذا سائل يقول: أطعمونا من عَشَائكم أطعمكم الله من ثمار الجنة هذه الليلة ويكثر من ذلك، فقال القاضي: إن استجيب لهذا السائل فيكم فليس يُصْبِح مِنا وَاحِد»[3].

---

(١) اكتفى ابن الأبار في التكملة بذكر كنيتها وقال: أنه لم يقف على اسمها ٤/ ٢٤٥.

(٢) نفسه ٤/ ٢٣٤.

(٣) نفح الطيب ٢/ ١٧، ومطمح الأنفس، ص ٢٤٥.

خامساً: عقيدته:

إذا كانت العقيدة الإسلامية الصافية قد تعرضت لهزات عنيفة في المشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الأول؛ بسبب تسارع الفتن، وانتشار المذاهب الباطلة، فإن الأندلس قد سلَّمها الله من ذلك، ولذا يقول ابن حزم عن فضل الأندلس أنها لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل[(١)]، ولم تظهر بعض الآراء النشاز بها إلاَّ في فترة متأخرة من خلال بعض المنتسبين إلى العلم الذين تأثروا بتلك المذاهب، وصاروا يروِّجون لأباطيلها في بلاد المغرب والأندلس، ومن أبرزهم: خليل بن إسحاق، ويحيى بن السَّمينَة، والوزيرُ صاحبُ المظالم أحمد بن موسى بن حَدِير الذي كان من شيوخ المعتزلة وأكابرهم بالأندلس في عصر القاضي منذر، وله كتب ورسائل يناصر فيها معتقده، وكان القاضي رحمه الله كثيراً ما يرد عليه ويناقض أقواله خصوصاً في مراسلات علمية جرت بينهما[(٢)].

وإذا كان الخبر واضحاً في الدلالة على مجابهة منذر ومنابذته لمعتقد المعتزلة فإنه لم يسلم هو نفسه من الاتهام به، فقد أورد الإمام ابن حزم الظاهري في كتابه طوق الحمامة حينما أورد خبراً عن أبناء منذر قائلاً: «وكان أبوهم قاضي القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب

---

(١) انظر: نفح الطيب ٣/ ١٧٦.

(٢) انظر: ترجمة أحمد بن موسى بن حدير وخبر المراسلات في نسخة أخرى لجذوة المقتبس للحميدي نشر ما فيها من زيادات د. عبد الملك الشامي بمجلة المورد المجلد: ١٧، ص: ٢٤٢ العدد الأول، وانظر أيضاً: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٧٠.

الاعتزال»[1]، وهذا الخبر في دلالته صريح في اتهام القاضي بالاعتزال إلاَّ أنه لا يمكن الركون إليه واعتماده في إلحاق ذلك به؛ لأنه فرق بين أن يقول ابن حزم ــ وهو من هو في سعة العلم والتثبت ــ: كان منذر معتزلياً، وأن يقول: كان متهماً بالاعتزال، فلا شك أن فيه دليلاً قوياً على تضعيف ذلك الاحتمال، خصوصاً وأنه بَلَدِيُّه وقريب من عصره فلا يصعب عليه التوثق من أمره، إضافة إلى أننا نجده في موضع آخر يعدد زعماء المعتزلة بالأندلس فلم يذكر من بينهم منذر بن سعيد بل عَدَّه من أعلام الظاهرية[2].

وإذا تأمَّلنا فيما وصلنا عن منذر وجدناه يُناقِض ما ذهب إليه ابن حزم من اتهام منذر بالاعتزال مناقضة كاملة، فالمعتزلة كما هو معلوم يقولون بخلق القرآن، ويحاربون من يقول خلاف ذلك، وَمُنذرٌ يرد على من يقول بذلك ردًّا عنيفاً، يقول رحمه الله في فتوى له: «. . . إن القائل إذا قال: «إن عيسى رسول الله وكلمته» ولم يصل ذلك بأن يقول: «وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»، أوجب أن كلام الله مخلوق لأن عيسى مخلوق، وإذا كان عيسى مخلوقاً وهو كلمة الله، فكلمة الله مخلوقة، وتعالى الله عن ذلك علوًّا. . . وكلمة الله هي التي تكون بها المخلوقات وهي قوله: كن، فلو كانت كلمة الله مخلوقة لوجب أن يكون المخلوق يخلق مخلوقاً تعالى الله»[3].

---

(١) طوق الحمامة، ص ٧٢.

(٢) ذكر ذلك في رسالته عن فضل الأندلس، نفح الطيب ٣/ ١٦٩، و ١٧٦.

(٣) انظر فتواه في وثيقة عقدها بعض أهل العلم. ورقة ٢٥٣، وهي مخطوطة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط برقم (٢٩١ ق)، وقد حققتها وألحقتها بآخر هذه الدراسة.

وبعد هذا أقول: إنه من الخطأ اتهام منذر بالاعتزال؛ لأن ذلك يجافي الحق والصواب، غير أن هذا لا يعني أن القاضي قَدْ سَلِم من كلام علماء آخرين فيما يتعلق بمنهجه في طرح القضايا العقدية ومعالجتها وما يترتب على ذلك من نتائج قد تكون مخالفة لمعتقد أهل السنة، فقد ذكر ابن الفرضي عند ترجمته لمنذر أنه: «كان بصيراً بالجدل، منحرفاً إلى مذهب أهل الكلام، لهجاً بالاحتجاج، ولذلك ما كان ينحل في اعتقاده الله أشياء مجازيه بها ومحاسبه عنها»[1]، وليت الإمام ابن الفرضي رحمه الله بين لنا شيئاً من هذه الآراء العقدية التي ينكرها على منذر، إلاَّ أنه أبهم ذلك تورعاً منه ــ والله أعلم ــ موكلاً أمر ذلك لله سبحانه وتعالى.

ونظراً لما يكتنف القضية من غموض عند ابن الفرضي، فإنني حاولت قدر المستطاع تتبع أقوال القاضي التي تمس قضايا المعتقد في جملة من الكتب التي نقلت شيئاً من ذلك عنه، ما دام أنه لم يقع بين أيدينا ــ وللأسف ــ حتى الآن أي من كتبه، فظفرت ولله الحمد بجملة من ذلك.

أولها: ما أَوْرده ابن عطية في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2]، قال رحمه الله: «... وفي قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾: رد على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن

---

(١) ويرى الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة أن العبارة فيها ركاكة، والصواب: ولذلك كان ينتحل في اعتقاده أشياء الله مجازيه بها ومحاسبه عنها. تاريخ العلماء ٢/ ١٤٣.

(٢) سورة البقرة: جزء من الآية ٢٤.

وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي»(١)، ثم تناقل هذا القول عن ابن عطية مجموعة من أئمة التفسير، منهم أبو حيان، والقرطبي، وابن كثير، في تفاسيرهم عند نفس الآية.

والقول بذلك ـ عدم خلق الجنة والنار حتى الآن ـ هو مذهب الخوارج وكثير من المعتزلة، وهو قول باطل معارض للنصوص الصريحة من الكتاب والسنة الدَّالة على أنهما مخلوقتان الآن(٢)، ولكن هل فعلاً كان منذر رحمه الله يقول بذلك، أم أن ابن عطية لم يكن دقيقاً في نقله؟

إن هذا التساؤل لم يطرح جزافاً وإنما اكتسب مشروعيته مما ذكره الإمام ابن حزم في فِصَله حين قال: «وكان القاضي منذر بن سعيد يذهب إلى أن الجنة والنار مخلوقتان إلاَّ أنه كان يقول أنها ليست التي كان فيها آدم عليه السلام وامرأته»(٣)، وهذا النص النفيس الدقيق يُشكل مع ما ذكره ابن عطية، ويدفعنا إلى الشك فيما نسبه لمنذر.

ومما يؤكد ذلك أن منذراً لو كان يقول بأن الجنة والنار لم تخلقا حتى الآن، لما كانت هناك فائدة في تحدثه عن الجنة التي أُسكنها آدم هل هي جنة الخلد أم لا؛ لأنه يلزم بالرأي الأول ويتحصل منه أنها ليست جنة الخلد، فلا حاجة لتقريره وطرحه، بل وتأليفه لكتاب حول ذلك(٤)، وإلاَّ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/ ١٤٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٦/ ٣٨١، وباب صفة النار وأنها مخلوقة ٦/ ٣٩٦.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٤٢.

(٤) سيأتي الحديث عن هذا الكتاب عند ذكر مؤلفاته.

لوصفنا قوله بالعبث، ما عدا إذا كان ينفي وجود النار الآن دون الجنة وهذا بعيد لأن أصل الكلام فيهما واحد.

ثانيها: ما ثبت عنه من أن الجنة التي أُسكنها سيدنا آدم عليه السلام ليست جنة الخلد، فقد نقل ابن القيم عن منذر في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أن العلماء اختلفوا في الجنة المقصودة فقد: «قالت طائفة: أسْكن الله آدم جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة، وقال آخرون: هي جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه إياها ليست جنة الخلد، وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به... والله أعلم بصواب لك.

ثم قال: والقول بأنها جنة في الأرض ليست جنة الخلد قول أبـي حنيفة وأصحابه، وقد رأيت أقواماً نهضوا لمخالفتنا في جنة آدم عليه السلام بتصويب مذهبهم من غير حجة إلاَّ الدعاوى والأماني، ما أتوا بحجة من كتاب ولا سنة، ولا أثر عن صاحب ولا تابع، ولا تابع التابع، ولا موصولاً ولا شاذاً مشهوراً.

وقد أوجدناهم أن فقيه العراق ومن قال بقوله، قالوا إن جنة آدم ليست جنة الخلد، وهذه الدواوين مشحونة من علومهم، ليسوا عند أحد من الشاذين بل بين رؤساء المخالفين؛ وإنما قلت هذا ليعلم أني لا أنصر مذهب أبـي حنيفة، وإنما أنصر ما قام عليه الدليل من القرآن والسنة.

هذا ابن زيد المالكي يقول في تفسيره: سألت ابن نافع عن الجنة أمخلوقة هي؟ فقال: السكوت عن الكلام في هذا أفضل، وهذا ابن عيينة يقول في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾، قال: يعني في

الأرض. وابن نافع إمام وابن عيينة إمام، وهم لا يأتون بمثلهما ولا من يضاد قوله قولهما»[1].

كما احتج بأدلة أخرى تعضد ما ذهب إليه قائلاً: «لو كانت جنة الخلد لما أكل من الشجرة رجاء أن يكون من الخالدين. . .، وأن جنة الخلد لا كذب فيها وقد كذب فيها إبليس، ومن دخل الجنة لم يخرج منها وآدم وامرأته عليهما السلام قد خرجا منها»[2].

ولما أورد ابن حزم رأي منذر واستدلاله رد عليه محاولاً إبطال تلك الحجج، ومناصرة القائلين بأن الجنة التي أسكنها آدم هي جنة الخلد، والمتأمل لآراء الفريقين يلحظ قوة أدلة كل فريق، وكثرة المساندين له من السلف والخلف، فلا مطعن في عقيدة من قال بهذا الرأي أو ذاك[3].

ثالثها: ما نقله ابن عطية رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[4]، أن منذر بن سعيد قال: «وجاء ربك معناه ظهوره للخلق هنالك ليس مجيء نقلة، وكذلك مجيء الصاخَّة ومجيء الطامَّة»[5].

والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة في هذه الآية وشبيهاتها،

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ص ٢٢.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٤٢.
(٣) ولقراءة المسألة بتفصيل ارجع إلى حادي الأرواح، ص ٢٢ ـ ٤٤.
(٤) سورة الفجر: الآية ٢٢.
(٥) المحرر الوجيز ١٦/ ٢٩٩، وانظر أيضاً: تفسير الثعالبي ٥/ ٥٨٨، وروح المعاني للألوسي ٣٠/ ١٢٨.

أن فيها دليلاً على إثبات صفة المجيء لله سبحانه دون تحديد لكيفيته، بل هو مجيء يليق به سبحانه وتعالى ليس في إمكاننا تصوره.

وهذا التفسير من منذر لكلمة المجيء في الآية بالظهور لم أجده عند غيره، فهو مخالف للمعتزلة ومن سلك سبيلهم من المؤوِّلة والمعطلة الذين صرفوا الآية عن ظاهرها وقالوا: أي جاء أمر ربك.

سادساً: مذهبه:

إن المتتبع لبعض ما دُوِّن في كتب الفقه وغيرها من آراء للقاضي منذر، يستشف من خلالها العقلية الاجتهادية التي كان ينطلق منها منذر في استنباط الأحكام دون التقيد بمذهب بعينه، وإن كان في غالب أمره يميل إلى مذهب داود بن علي؛ لاصطفائه المنهج الظاهري في فهم النصوص، ولهذا كان القاضي أبو طالب عقيل بن عطية القضاعي دقيقاً حينما قال عن منذر بن سعيد بأنه: «رجل ظاهري مثل ابن حزم إلاَّ أنه دونه في الشذوذ»[1]، ويقول أمير المؤمنين الحكم عنه: «... وكان مذهبه النظر والجدل، يميل إلى مذهب داود بن علي»[2].

وقال الزبيدي: «وكان يتفقه بفقه أبي سليمان داود القياسي... ويؤثر مذهبه، ويحتج لمقالته»[3].

---

(١) تحرير المقال في موازنة الأعمال، لأبي طالب عقيل بن عطية القضاعي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٠٩ ق، ل ٢٦ ب، وفي نسخة أخرى برقم ٦٥٦ ك، ص ٣٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٥.

(٣) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

وقال ابن الفرضي: «وكان يميل إلى رأي داود... ويحتج له... مع ترك التقليد»[1].

ومنذر باختياره لمذهب الظاهر يعد من أبرز علماء الأندلس الذين آثروه على مذهب مالك رحمه الله الذائع الانتشار في ربوع الأندلس والغرب الإسلامي عموماً، مما كان له أبلغ الأثر في ازدهار المذهب الظاهري في الأندلس خصوصاً مع انخراط عدة أعلام آخرين في سِلْكِه تُوِّجوا بالإمام أبـي محمد علي بن حزم رحمه الله.

ولما تولى منذر منصب القضاء وكانت الأقضية تتصل اتصالاً مباشراً بالأحكام الشرعية التي قد تختلف من مذهب فقهي إلى آخر، فإن قاضينا منذراً كان يلتزم مذهب مالك رحمه الله في القضاء، ويعتمد عليه في إصدار أحكامه؛ إذ هو المذهب المختار في الأندلس.

قال الزبيدي: «... فإذا جلس مجلس الحكم قضى بمذهب مالك وأصحابه رحمهم الله»[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢.

(٢) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

المبحث الثاني
تكوينه العلمي

توافرت أهم أسباب التحصيل العلمي لمنذر رحمه الله من حيث الرغبة الصادقة في اكتساب المعرفة، وقوة العزيمة التي تبعث على الصبر وتَحَمُّل ضنك العلم وشدته، والهمة العالية الدافعة إلى تحقيق معالي الغايات وأسماها، إضافة إلى بيئة علمية فريدة مساعدة على بلورة ذلك وتحقيقه، وفوق كل ذلك وقبله توفيق الله وتسهيله.

ولا شك أنه ومنذ وقت مبكر من عمره ظهرت عليه علامات النبوغ المرتكزة على سيلان الذهن، وشدة الذكاء، وقوة الحافظة، وعلوٍّ الهمة، والجديّة المتواصلة، مما دفع أباه ليفرغه لطلب العلم والأخذ عن أكابر أعلام مدينة قرطبة أم مدائن الأندلس، ومركز العلم والإشعاع بالغرب الإسلامي، والتي جمعت من العلماء والفقهاء والصالحين خلقاً كثيراً، مع وجود دولة بني أمية الرشيدة التي كانت تقدر العلم، وتحترم العلماء وتجلّهم وتعمل بمشورتهم.

فكانت هذه العوامل مجتمعة دافعاً لمنذر بأن يقبل على التحصيل ويهتم بالطلب ويجتهد وسعه في ذلك، ويحرص كل الحرص على مجالسة العلماء والاستفادة منهم.

أولاً: طلبه للعلم بقرطبة:

لم تسعفني المصادر التي توفر لي الاطلاع عليها بشيء يذكر عن منذر في فترة صباه وبداية حياته العلمية، وكيف تدرج في سلم المعرفة، وما مدى الدور الذي لعبه أبواه في توجيهه والسهر على تعلمه، ومن هم أبرز الأعلام الذين أخذ عنهم في هذه الفترة من عمره؟

ولكن يمكن أن نتمسك في بيان ذلك بالحالة العامة التي كان ينهجها أبناء الأندلس في التدرج في طلب العلم بالتوجه أولاً إلى الكتاتيب القرآنية لحفظ القرآن وإتقانه، كما هي عادة أهل الأندلس عموماً.

ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة علوم اللغة والشريعة على نخبة من علماء الأندلس، من بينهم عبيد الله بن يحيى الليثي الذي اكتفى ابن الفرضي بذكره من مشايخ منذر في هذه المرحلة صراحة وعمَّم بعد ذلك بقوله: وسمع من غيره[1].

وقد مكث منذر بقرطبة طالباً للعلم فترة هامة من حياته، جمع فيها صنوفاً من العلوم والمعارف، حتى أصبح عنده إلمام واطلاع واسع، ومشاركة في علوم الشريعة واللغة، ثم تطلعت نفسه إلى حج بيت الله الحرام والرحلة في طلب العلم.

ثانياً: رحلته إلى المشرق:

لم يثن منذر عن الرحلة إلى الحج والاتصال بعلماء الشرق والأخذ عنهم بعد ديار الأندلس ومخاطر السفر، فالرحلة هي دأب العلماء، وسنتهم التي أصبحت قاعدة مستقرة في الحضارة الإسلامية، كما تعتبر

---

(١) انظر: تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢.

منقبة ومفخرة لصاحبها تمكنه من تحقيق مكاسب عامة، ومعارف جديدة، وثقافة متنوعة، حتى قيل: «الرحلة نصف العلم».

ولمنذر بن سعيد رحلة وحيدة قصد منها الحج إلى بيت الله الحرام أداء للفريضة، كما تهيَّأ له في هذه الرحلة ملاقاة ثلة من أكابر العلماء بكل من مكة ومصر، حيث أخذ عنهم، وروى بعض كتبهم، فرجع منها بفوائد جسيمة.

* **التوجه إلى مكة:**

لما بلغ منذر من العمر خمساً وثلاثين سنة أي في حوالي سنة ٣٠٨هـ[١]، رحل حاجًّا إلى بيت الله الحرام في رحلة طويلة ومضنية قطعها راجلاً مع بعض الأفراد، مَرُّوا خلالها بفترات عصيبة ومواقف شديدة، منها: ما رواه ابن حزم عن حكم بن القاضي منذر، قال:

«أخبرني أبي أنه حج راجلاً مع رجالة، فانقطعوا وأعوزهم الماء في الحجاز وتاهوا، قال: فآوينا إلى الغار ننتظر الموت، فوضعت رأسي ملصقاً بالجبل، فإذا حجر كان في قبالته فعالجته، فنزعته، فانبعث الماء، فشربنا وتزوَّدنا»[٢].

حقًّا إنها عناية الباري بحجاج بيته الصابرين، وإكراماً لأهل العلم العاملين.

ولما حط منذر رحله بمكة، وأدى الفرض، شمر على ساعد الجد واستنفر جهده في ملاقاة العلماء، وتتبَّع مجالسهم مفيداً ومستفيداً، فعلا صيته، واشتهر ذكره وفضله، يقول المَقَّري:

---

(١) انظر: تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢.

(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٨، والسير للذهبي ١٦/ ١٧٥.

«فاجتمع بعدة أعلام وظهرت فضائله بالمشرق»[1].

وتذكر لنا المصادر أنه روى عن أحد أبرز أعلام أم القرى في تلك الحقبة وهو: **أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري**، حيث لزمه مدة، وروى عنه كتابه «الإشراف في اختلاف العلماء»[2]، وأما سماعه عن غيره، فهذا ما لم تفصح عنه كتب التراجم تفصيلاً، وإن كان في بعضها دلالة مجملة على أنه جالس غير محمد بن المنذر، يقول ابن الفرضي:

«فأخذ بمكة من ابن المنذر... وأخذ من غيره»[3].

*** النزول بمصر:**

لما قفل منذر راجعاً من الحجاز إلى الأندلس لم يكن ليمر ببلاد الكنانة دون أن يحط بها الرحال ويمكث هناك مدة، خصوصاً وهي حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، ومعقل من معاقل العلم، جمعت بين جنباتها علماء أفذاذاً، وفقهاء أجلاء، يربون عن الحصر.

فأقام بها مدة من الزمن لعله يجد فيها ما يروي به نفسه التواقة إلى جمع مصنفات العلم وملاقاة العلماء، فاتجه إلى مجلس أبي جعفر النحاس، وكان له طمع في أن يمكنه من استنساخ كتاب «العين» للخليل، فلم يتحقق له ذلك بسبب مناقشة مثيرة حدثت بينهما، أظهرت علو كعب منذر، وقوة عارضته، واطلاعه الواسع في الأدب، وحسه النقدي، يروي الزبيدي عن منذر قائلاً:

---

(١) نفح الطيب ٢/ ٢١.

(٢) انظر: طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥، واقتباس الأنوار، ص ٣٧، وكتاب الإشراف مطبوع في ثلاثة مجلدات.

(٣) تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢.

«أتيت ابن النحاس في مجلسه فألفيته يملي في أخبار الشعراء شعر قيس بن معاذ المجنون حيث يقول: [الطويل]

خليلي هل بالشام عيْن حَزِينَة تبكي على نَجْد لَعَلي أعينُها
قد أسْلمها البَاكُون إلاَّ حمامة مُطوَّقة باتت وبات قَرينُها

فلما بلغ هذا الموضع قلت له:

«باتا يفعلان ماذا؟ أعزك الله!».

فقال لي: «وكيف تقول أنت يا أندلسي؟».

فقلت: «بانت وبان قرينها»، فسكت.

قال القاضي: «فما زال يستثقلني بعدها حتى منعني العين، وكنت ذهبت إلى الاستنساخ من نسخته»[1].

فلما تأكد لمنذر حقد النحاس عليه فارقه، واتجه لحِلَق العلم ومجالسه في بحث دؤوب ومتواصل علّه يظفر بإحدى نسخ «العين» فيروي غليله بنسخ هذا المرجع العلمي واللغوي الفريد، وبالتالي التمكن من إدخاله إلى بلاد الأندلس؛ إفادة لأهل العلم وطلابه، وإثراء للمكتبة الأندلسية، فمكنه الله من مراده، وَيَسَّر له سبيل الوصول إليه، بأن أخبر بامتلاك ابن ولاد[2] لكتاب «العين»، يقول منذر:

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص ٢٢١، جذوة المقتبس، ص ٣٢٨، وإنباه الرواة ١/ ١٣٨، والمقفى الكبير للمقريزي ١/ ٧١٤، ٧١٥، نفح الطيب ٢/ ١٩، ٢٠.

(٢) سيأتي التعريف به.

«فقصدته فوجدت رجلاً كامل العلم، حسن المروءة، وسألته الكتاب، فأخرجه إلي»[١].

فبلغ الخبر أبا جعفر فندم على معاملته القاسية لمنذر بن سعيد، واستبان له خطأه وما اقترفه في حقه، (فلم يزل يرفعه حتى أدناه منه، وكان يعرف ذلك له بعد ذلك ويكرمه)[٢].

ثم رجع عالمنا وفقيهنا إلى موطنه بالأندلس بعد رحلة قضاها بين أداء النسك وبين جمع العلوم والمعارف، حيث كانت الحصيلة هامة، ومدة الرحلة لم تتجاوز أربعين شهراً[٣] (أدخل ـ فيها ـ إلى الأندلس من علم النظر ومن علم اللغة كتباً كثيرة)[٤].

ثالثاً: شيوخه:

لم تصرح المصادر التي أتيح لي الاطلاع عليها بجميع أسماء شيوخ منذر بن سعيد، وخصوصاً من تلقى العلم عنهم في صباه وشبابه بحيث بقيت هذه الفترة غامضة من حياته لم نتعرف فيها إلاَّ على شيخ واحد من شيوخه الأندلسيين، وهو عبيد الله بن يحيـى بن يحيـى الليثي، فيكون هذا العالم من أوائل الذين أخذ عنهم منذر بقرطبة، ونجد ابن الفرضي والمقَّري يصرِّحان بأنه سمع من نظرائه دون تحديد اسم أي واحد منهم، يقول المقري: «وسمع منذر بالأندلس من عبيد الله بن يحيـى ونظرائه»[٥].

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٢١.

(٢) جذوة المقتبس، ص ٣٢٧.

(٣) تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضي ٢/ ١٤٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٥.

(٥) نفح الطيب ٢/ ٢١.

وهذا الخبر لا يُمَكِّن من الجزم بتتلمذ منذر على عَلم بعينه من نظراء عبيد الله الليثي، ولعله يستأنس به دليلاً على كثرة من أخذ عنهم حتى عمم تَتَلْمُذَه على كل نظرائه، وعليه فشيوخ منذر الذين تمكنت من الوقوف على أسمائهم تفصيلاً هم:

١ ــ أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي مولاهم:

من أهل قرطبة، يروي عن أبيه عن مالك، وله رحلة دخل فيها العراق، وسمع من علمائه، كما دخل مصر أيضاً وسمع بها، ثم دخل الأندلس بعلم وافر، وكان من أوائل من أخذ عنهم القاضي منذر بن سعيد بالأندلس، مات رحمه الله سنة ثمان وتسعين ومائتين[١].

٢ ــ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري:

كان إماماً حافظاً مجتهداً ورعاً، له التصانيف المفيدة جدًّا ككتاب «الإشراف في اختلاف العلماء» وكتاب «الإجماع»، وهي كتب لم يصنف أحد مثلها، فاحتاج إليها الموافق والمخالف، توفي سنة ثمان عشرة وثلاثمائة، وقيل: سنة تسع أو عشر وثلاثمائة[٢].

٣ ــ أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المعروف بالنحاس:

أخذ عن أئمة النحو بالعراق كالمبرد والأخفش والزجاج، ثم رجع

---

(١) تاريخ العلماء ١/ ٢٩٢، ٢٩٣، والجذوة، ص ٢٥٠، وذكر فيها أن وفاته كانت سنة (١٩٧هـ).

(٢) انظر: طبقات الشافعية ٣/ ١٠٢، ١٠٣، وطبقات الفقهاء، ص ١١٨، وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٠، ومقدمة كتاب الإشراف.

إلى مصر، وكان واسع العلم، غزير الرواية، له المصنفات المفيدة، جالسه القاضي منذر في رحلته، وحدث بينهما خلاف فمنعه العين، ثم قربه بعد ذلك لما ظهر له فضله، توفي غَرَقاً في النيل سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة(١).

٤ ــ أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمي المصري المعروف بابن ولّاد:

إمام من أئمة النحو في عصره، رحل إلى بغداد، وأخذ عن أساطينها، كالزجاج وابن السري وغيرهما، وكان فاضل الأخلاق، لزمه القاضي منذر بن سعيد لما دخل مصر، وروى عنه كتاب «العين» وأثنى عليه ثناءً حسناً، توفي ابن ولاد رحمه الله سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة(٢).

رابعاً: مروياته:

إلى جانب اهتمام منذر بملاقاة العلماء والأخذ عنهم، اعتنى أيضاً برواية ما ظفر به عندهم من مؤلفات جليلة، مع استنساخها ومقابلتها، ومن أبرز مروياته:

١ ــ **كتاب «الإشراف»**: لمحمد بن المنذر النيسابوري، (وهو كتاب كبير يدل على كثرة وقوفه على مذاهب الأئمة، وهو أحسن الكتب وأنفعها وأمتعها)(٣).

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٢٠، ٢٢١، وفيها أن وفاته سنة (٣٠٧هـ)، وبغية الوعاة ١/ ٣٦٢.

(٢) طبقات الزبيدي، ص ٢١٩، ٢٢٠، وإنباه الرواة ١/ ١٣٤ ــ ١٣٦.

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٢٠٧.

وقد روى القاضي منذر رحمه الله هذا الكتاب عن مُؤلِّفِه مباشرة أثناء ملاقاته إياه بمكة ــ شرَّفها الله ــ ثم أدخله إلى الأندلس فحصلت به فائدة كبيرة.

قال الزبيدي: «وكانت له رحلة لقي فيها جماعة من علماء اللغة والفقه، وجلب كتاب «الإشراف في اختلاف العلماء» رواية عن المؤلف: محمد بن المنذر»[1].

وقال ابن الفرضي: «أخذ بمكة من ابن المنذر كتابه المؤلف في الاختلاف المسمى: «كتاب الإشراف» »[2].

وكتاب «الإشراف» هذا لم يعثر عليه كاملاً إلى الآن، وإنما حُصل على أجزاء منه طبعت في كتاب بعنوان «الإشراف على مذاهب العلماء»[3].

٢ ــ **كتاب «العين»**: لإمام العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت ١٧٥هـ)، وكتاب «العين» من أمهات معاجم اللغة وأشهرها، وهو أقدم مصنف أُفْرد لجمع اللغة العربية[4]، وما إن خرج إلى الوجود حتى تسارع أئمة اللغة إلى نسج مؤلفات على منواله، والاستفادة مما حواه من علوم لم تجتمع في مصنف قبله، ونظراً لمكانة هذا الكتاب وصاحبه عليه رحمة الله قصد منذر أبا جعفر النحاس، فلما اعترض عليه الاعتراض

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

(٢) تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢.

(٣) طبعة دار طيبة بالرياض، تحقيق: أبو حماد حنيف.

(٤) ولمزيد توسع ينظر المزهر للسيوطي ١/ ٧٦ ــ ٩٢.

السابق ذِكره منعه إياه، فاتجه القاضي إلى أبـي العباس ابن ولاد فاستنسخ من نسخته[1]، وكانت نسخة القاضي منذر من ضمن نسخ «العين» التي أدخلت الأندلس.

وقد أثارت هذه النسخة جدلاً كبيراً حينما جمع أمير المؤمنين الحكم ثلة من العلماء لتحقيق كتاب «العين» ومقابلة نسخه وكانت نسخاً كثيرة، في جملتها نسخة القاضي، فوجدوها أشد النسخ تصحيفاً وخطأً وتبديلاً، فبلغ اتهامهم ذلك منذر، فكتب في رقعة طاعناً في حكمهم، وبعث بها إليهم: [الوافر]

جَـزَى الله الخليـل الخيـر عنّـا ... بـأفضـل مـا جَـزَى فهُـو المجـازي

ومـا خطـأ الخليل سِـوَى المغيلـي ... وعُضْروطَيْن فـي رَبَـضِ الطِّـرَاز[2]

فَصَـار القـوم زَرِيَّـة[3] كـل زَارِ ... وسُخْـرِيّـا وهُـزْأَة كـلِّ هَـازِي[4]

فـردوا عليـه بقصيدة أوكلـوا كتابتها إلى محمد بـن أبـي الحسين[5]

---

(١) انظر: الخبر في طبقات الزبيدي، ص ٢٢١.

(٢) المغيلـي: هـو أبـو بكـر المغيلي، كـان في أيـام حكم المستنصـر، والعِضْرِط، والعُضْـرُط: الخـادم على طعـام بطنـه. ويقصـد بهمـا الأخوين: أحمد بن أبـان اللخمـي، (ت ٣٨٢هـ، انـظر ترجمتـه في: الصلة ١/ ١٤)، ومحمـد بـن أبـان اللخمي، (ت ٣٥٤هـ، وتـرجمته في تاريـخ العلمـاء والـرواة ٢/ ٦٩)؛ لكونهما من الذين انتقدوا نسخته.

(٣) زرية، أي: معيبة كل معيب.

(٤) الأصل: هازىء بالهمز، وخففها ضرورة.

(٥) عـالـم مـن علمـاء اللغـة والأدب عـاش أيـام النـاصـر. انظـر: جـذوة المقتبـس، ص ٤٧، ٤٨).

الذي تجاوز الحد في الانتقاص من القاضي منذر، وغالى في إيذائه حتى تورع الحميدي في جذوته عن نقلها كاملة واكتفى بإيراد الأخف منها:

[الوافر]

هَلُـمّ فقـد دعـوت إلـى الْبِـرَاز ... وقَـدْ نـاجـزت قِـرنَـا ذَا نَجَـازِ
ولا تمـش الضَّـرَّاء فقـد أَثَـرْت الـ ... أسود الغُلْـب تَخْطِـر بـاحْتِفَـازِ[1]
وأَصْحِـر لِلّقَـاء تكُـن صـريعـاً ... بماضي الحد مصقول الجراز[2]
رَوَيْت عن الخليل الوهم جَهْرا ... لِجَهْلـك بـالكـلام وبـالمجـاز
دَعَـوْتَ لـه بِخَيْـر ثـم أَنْحَـت ... يَـدَاك علـى مفَـاخِـره العـزاز
تُهَـدِّمُهـا وتجعـل مـا عـلاهـا ... أَسـافِلهـا، ستجْـزِيـك الجوازي
جـزى الله الإِمَـام العـدل عنـا ... جـزاء الْخَيْـر فهـو لـه مُجَـازي
بـه وَرِيَـتْ زنـادُ العلـم قِـدْمـا ... وشـرَّف طـالبيـه بـاعتـزاز
وَجَلَّـى عـن كتـاب العيـن دُجْنـا ... وإظـلامـاً بنـور ذي امتيـاز
بـأستـاذ اللُّغَـاتِ أبـي علـي ... وأَحْـدَاثٍ بنـاحيـةِ الطِّـراز
بهـم صـحَّ الكتـاب وصَيَّـروه ... مـن التَّصْحِيـف فـي ظـل احتـراز

وعرضت على المستنصر فرآها وضحك، وأمر بإرسالها إلى القاضي أبـي الحكم فلم تسمع له إجابة[3].

---

(١) الضـراء: الشجـر الملتـف فـي الـوادي؛ ويقـال: فـلان يمشـي الضـراء إذا مشى مستخفيـاً. (اللسـان: مـادة «ضـرر») والغلب جمـع أغلب، وهـو الأسد الغليظ الرقبة.

(٢) أصْحَر: برز، والجراز: السيف القاطع.

(٣) انظر الخبر بكامله في: جذوة المقتبس، ص٤٧ ــ ٤٩، وإنباه الرواة ٣/ ٧١، ٧٢.

٣ ـ كتاب «الأمالي والنوادر»: لأبـي علي القالي البغدادي، وهو كتاب معروف بيد الناس، كثير الفوائد، غاية في معناه[١]، وقد أملاه ظاهراً، وارتجل تفسير ما فيه، وقد روى هذا الكتاب الحافظ ابن حجر بسند متصل إلى منذر بن سعيد عن مؤلفه، وهو هكذا:

أبو علي القالي

↓

منذر بن سعيد

↓

جعفر بن عبد الله

↓

أحمد بن إسماعيل الطليطلي

↓

أبو طاهر السِّلفي

↓

علي بن محمود

↓

يونس بن إبراهيم

↓

أبو علي الفاضلي

↓

ابن حجر العسقلاني[٢]

❏ ❏ ❏

---

(١) انظر: كلام الزبيدي عليه في طبقاته، ص ١٧٥ ـ ١٨٦.

(٢) انظر: المعجم المفهرس، ص ٤١٣.

الفصل الثاني
القاضي منذر، عطاءاته وإنجازاته

مدخل:

بعد سنين من الطلب والتحصيل داخل الأندلس وخارجها، وبالأخذ عن شيوخ وأعلام جهابذة في شتى صنوف العلم ومشاربه، استطاع منذر أن يحقق مكاسب علمية واسعة، أظهرت براعته وتمكنه من مختلف العلوم، واستطاع أن يبرز داخل الساحة العلمية ليساهم في إرساء معالم الحضارة الإسلامية بالأندلس من خلال مسيرة مليئة بالعطاء والبذل، وسد الثغرات التي تحتاج الأمة في زمانه إلى من يقف عليها، فإذا به يتصدر علماء وقته في الفقه والتفسير واللغة وغيرها، ويقوم بوظائف التدريس والإفتاء والقضاء والتأليف خير قيام، بالإضافة إلى النهوض بواجب الإصلاح والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

المبحث الأول
مناصب منذر وأعماله

تمثّل عودة منذر من بلاد الشرق إلى الأندلس سنة ٣١١هـ بداية تحول في حياته من مرحلة الأخذ والطلب إلى مرحلة الإنتاج والعطاء، ولا شك أن طلبة العلم والعلماء كانوا يرقبون هذه العودة بفارغ الصبر ليطلعوا على الزاد العلمي والمعرفي الذي رجع به منذر إلى ديار الأندلس، يقول الذهبي: «لقد أدخل إليها من علم النظر، ومن علم اللغة كتباً كثيرة»(١).

وحقًّا كانت عودة منذر بداية جهاد وعطاء في شتى مرافق الحياة.

أولاً: التدريس(٢):

كان منذر شديد العناية بهذه المهمة الجليلة حتى يتمكن من تحقيق الإفادة والتلقين للطلبة الذين تحلقوا حول مجلسه، لينهلوا من معين فياض بشتى العلوم، من فقه، وأصول، وتفسير، ولغة، فصار منذر بذلك مهوى لأفئدة الطلاب، يتسابقون في الأخذ عنه والرواية لكتبه،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٥.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٩٥، وجذوة المقتبس، ص ١٢٧.

حببهم فيه ورغبهم في مجالسته علو كعبه وسعة علمه وثبات جَنانه، وفصاحة لسانه، فقد «كان غزير العلم، كثير الأدب، وكان خطيباً بليغاً وشاعراً محسناً»[1]، كما حببهم فيه رفعة خلُقه، وشدة تواضعه، ولين جانبه.

يقول الزبيدي واصفاً حاله مع طلابه: «وكان ذا منظر نبيل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط إليهم، وإقبال عليهم، وكانت فيه دعابة حسنة»[2].

ثانياً: الإفتاء والشورى:

وما إن رجع منذر من رحلته المشرقية وظهر سطوع نجمه، وجلالة قدره، حتى اتجه إليه الخاصة والعامة، يعرضون عليه قضاياهم ونوازلهم ليفتيهم فيها، وقد دونت مجموعة من فتاويه وآرائه في كتب الفقه والنوازل والأقضية[3].

ومن فتاويه الْمُهمة هذه الفتوى التي حاول فيها أن يعالج قضية اجتماعية حساسة وهي قضية النسب؛ إذ من المعروف أن سكان الأندلس كانوا أخلاطاً من الأنساب والقبائل بسبب الهجرة وتعدد الوافدين عليها، مما أدى إلى ضياع أنساب كثير من الأفراد، وكانت هذه معضلة تواجه

---

(١) مطمح الأنفس، ص ١٣٨.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٩٥.

(٣) من ذلك فتويان، ورقة ٢٥٠ ـ ٢٥٣ بمخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم (٢٠٩ ق)، وانظر: المعيار المعرب ١٠/١١٦، ومعين الحكام ٢/٤١٧، والمقنع في علم الشروط، ص ٢٨٧.

المجتمع الأندلسي الذي لا زال فيه اعتزاز بالقبيلة والنسب، فما كان من القاضي منذر إلاَّ أن اجتهد ليضع للقضية حلاًّ يفوِّت ما يمكن أن يترتب على ذلك من مضار، فقال:

«إنَّ كل من نصر النبي ﷺ ولو بالإسلام، وفي أي وقت كان من الأيام، فهو أنصاري»[1].

وقد أثار هذا الحكم الجريء حفيظة العلماء من بعد منذر، فقد أتى الحافظ ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ) أي بعد حوالي ثلاثة قرون من وفاة منذر ليرد عليه في هذه القضية، وفيما يلي نص كلام ابن دحية أنقله لأهميته:

«وهذا النسب عندنا بالأندلس يسمى النسب الواسع، بمعنى أن كل من لا نسب له فإليه راجع[2]، فإذا سمعت بالأنصاري فيها نسباً، فانبذ فيه ولا تحكم به أماً ولا أباً، والذي كان السبب في ذلك، ووسع الطرق لهم فيه والمسالك، قاضي القضاة بقرطبة، الفقيه أبو الحكم منذر بن سعد الكُزني نسباً ـ وكزنة في البربر ـ البلُّوطي لنزول أجداده بفحص البلوط فنسب إليه، والبلوط هو الذي يسمى بالديار المصرية ثمرة الفؤاد، الداودي مذهباً، مع معرفته بمذهب مالك وغيره من الفقهاء، فكان هذا القاضي المذكور قال لهم: إن كل من نصر النبي ﷺ وفي أي وقت كان من الأيام، فهو أنصاريّ فانتسب الناس المجهولون في أنسابهم إلى ذلك،

---

(١) وهج الجمر في تحريم الخمر لابن دحية لوحة ١٢ ب، (مخطوط بالمكتبة المحمودية بالمدينة النبوية برقم ١٣٩، (١/ ٢١ حديث).

(٢) في الأصل: «رجع»، والمثبت من نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم د ٨٥٣.

وبئس ما فعل بأولئك، وهو نسب بالضيق أولى من السعة مع أنساب العرب الذين معه، وبالقلة في الأنساب، يعرفه من جمعه»[1].

وقد ساق ابن دحية مجموعة من الأدلة الحديثية التي تعضد ما ذهب إليه، منها الحديث الذي ساقه بسنده إلى الإمام البخاري:

«خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء[2] حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، أيها الناس: إن الناس يكثرون ويقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام. . .[3]»[4].

ونظراً لما تحلَّى به منذر من صفات وملكات دلَّت على رجاحة رأيه وقوة ذكائه وفطنته، فقد قربه الناصر ليكون مستشاراً له في الأحكام، واصطفاه لمجالسته، وخصَّه بمجموعة من أموره، فكان له نعم الجليس، وخير مشير ومسدد، وقصصه مع الناصر مبسوطة تعتبر مثالاً يحتذى ونموذجاً يبتغى في العلاقة التي ينبغي أن تسود بين العالم العامل المجاهد بلسانه وقلمه وبين الحاكم العادل، وكل ذلك سنعرض له في فصل خاص قادم إن شاء الله.

---

(١) وهج الجمر لوحة ١٢ ب النسخة المحمودية.

(٢) أي لونها كلون الدسم وهو الدهن، وقيل المراد أنها سوداء لكن ليست خالصة السواد. فتح الباري ٧/ ١٥٥، والنهاية في غريب الحديث، ص ٣٠٥.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨٠٠)، ٧/ ١٥٣.

(٤) انظر: وهج الجمر لوحة ١٢ ب، ١٣ ب.

ثالثاً: الخطـابـة[1]:

شهدت لمنذر كل الأقلام على فصاحة لسانه، وقوة بيانه، وبلاغة كلامه، وأن له الخطب العصماء التي كان يهز بها المنابر، وتتحرك لها القلوب والعواطف، حتى تبقى الأبصار مشدوهة إليه، والعقول متحيرة في أمره، لا يعتريه عي ولا فهاهة، بل هو الخطيب المصقع المفوَّه البليغ، لسان الأندلس وخطيبها بلا منازع ولا مدافع، طارت بخطبه الركبان، وتناقلتها دواوين الأدباء والكتَّاب، فبقيت إلى الحين شاهدة على طلاقة لسانه، وثبات جنانه، يتكلم دون تكلف ولا تعسف، فتتألف العبارات في فمه كأنها الدر المنثور.

قـال ابن بشكوال: «منـذر بن سعيـد خطيب بليـغ مصقـع لم يكـن بالأندلس أخطب منه»[2].

وقـال الحميـدي: «وكـان خطيبـاً علـى المنـابـر، وفـي المحـافـل مصقعاً»[3]، بل لم يتحدث أي كتاب من كتب التراث عن منذر بن سعيد إلاَّ وصفه بسمو الخطابة وقوة الفصاحة، لم يتخلف في ذلك حسب اطلاعي مصدر واحد.

---

(١) انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٩٥، وتاريخ العلماء والرواة ٢/ ١٤٣، وجـذوة المقتبـس، ص ٣٢٦، وبغيـة الملتمـس، ص ٤٦٥، ومطمـح الأنفـس، ص ٢٣٨، والمعجـب فـي تلخيـص أخبـار المغـرب، ص ٥٥، ٥٦، والمـرقبـة العليا، ص ٦٦.

(٢) السير، للذهبـي ١٦/ ١٧٤.

(٣) جذوة المقتبس، ص ٣٢٦.

وقد جمع الله لمنذر إلى جانب فصاحة اللسان وعلو البيان، صوت جهوريّ وقلب شجاع متوقد مع شدة العارضة وثبات الجنان، صفات متى جمعت في أحد ـ وقل أن تجتمع ـ إلاَّ بلغ القمة العليا في سماء الخطابة، والحد النهائي في التأثير وتحريك المشاعر، يقول عن ذلك الزبيدي: «وكان أخطب أهل زمانه غير مدافع، مع ثبات جنان، وجهارة صوت، وحسن ترسل»[1].

ويحسن بنا بعد هذا أن نعرج على نماذج من خطبه تناقلتها مؤلفات الأدب والتراجم، تزيد الوصف بياناً، والحديث حسناً وتماماً.

فمن أبرز خطب منذر ما رُوي من أن الناصر لدين الله أقام حفلاً ضخماً لمَّا وفد عليه سنة ست وثلاثين وثلاثمائة رسل ملك القسطنطينية، وكان يوماً مشهوداً، أمر الناصر فيه ابنه الأمير الحكم[2] أن يعد الخطباء والشعراء ليقوموا بين يديه بذكر جلالة مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة والعزة التي بلغتها دولة الإسلام، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه وذلة عدوه[3].

فأعد لذلك صنيعه الفقيه محمد بن عبد البر الكشكنياني[4]،

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) سبق التعريف به.

(٣) انظر: تاريخ ابن خلدون، ص ٣٠٩.

(٤) هكذا في اقتباس الأنوار، ص ٣٨، وهو الصواب نسبة إلى كشكنيان وهي قرية في قنبانية قرطبة، وفي المرقبة العليا ونفح الطيب ٣٦٨/٥ الكسنياني، وفي أزهار الرياض الكسيباني ٢/ ٢٧٣، وفي تاريخ العلماء والرواة ٢/ ٦٣، اللشكيتاني ولعله تصحيف من المحقق، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن =

وكان يدعي من البلاغة والفصاحة وإجادة الخطابة ما لا يستطيع غيره مجاراته فيه، «فلما قام يحاول ذلك... بهره هول المقام، وأبهة الخلافة، وحضر فلم يهتد إلى لفظة، بل غشي عليه، وسقط على الأرض»[1].

فجالت الأنظار تبحث عمن يقوم ليخطب مكانه ويرفع ذلك الوهى، فوقع الأمر على أبي علي القالي[2] اللغوي والأديب المشهور، فقام وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، فتوقف به القول، وانقطع عنه الكلام، فَوَجَمَ ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه[3].

= عبد البر من أهل قرطبة، سمع من محمد بن لبابة، وأسلم بن عبد العزيز، ورحل إلى المشرق فلقي به عدة أعلام كمحمد بن زربان، ومحمد الباهلي، ورجع إلى الأندلس بعلم غزير فسمع عنه جم غفير، ورحل ثانيه فوافته المنية بطرابلس الشام لعله في سنة ٣٤١هـ. انظر ترجمته في: تاريخ العلماء والرواة ٦٣/٢.

(١) اقتباس الأنوار، ص ٣٨، والمرقبة العليا، ص ٦٦.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي البغدادي، وُلد سنة ٢٧٠هـ، سمع من ابن دريد ونفطويه والزجاج... وصار إماماً في اللغة والأدب وعلل النحو، دخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ، وله كتاب «الأمالي والنوادر»، وكتاب «البارع»، وكتاب «المقصور والممدود والمهموز»، توفي سنة ٣٥٦هـ. طبقات الزبيدي، ص ١٨٥، وجذوة المقتبس، ص ١٥٤.

(٣) هكذا في اقتباس الأنوار، ص ٣٨، والمرقبة العليا، ص ٦٦، ونفح الطيب ٣٦٨/١، وأزهار الرياض ٢٧٣/٢، وأما في بقية المصادر فالظاهر منها أن المتكلم أولاً هو أبو علي القالي ولا ذكر فيها للكشكنياني. انظر: نفح الطيب ٣٦٨/١.

فلما رأى ذلك منذر بن سعيد وثب من مكانه، وقام من مقامه، فارتجل خطبة على غير أهبة، ومن غير استعداد، ولا رَوِيَّة، فواصل افتتاح أبي علي بكلام عجيب، وفصل حسيب، يَسُحُّه سَحًّا، كأنما يحفظه من مدة، فقال:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه[١]، فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلاّ الضلال، وأني قد قمت[٢] في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليّ معشر الملأ بأسماعكم وألْقِنوا[٣] عليّ بأفئدتكم[٤]: إن من الحق أن يقال للمُحِق: صدقت، وللمُبْطِل: كذبت، وإن الجليل تعالى في سَمَائِه، وتقدَّس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى صلى الله عَلَى نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه[٥] أنْ يُذَكِّرَ قومه الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة[٦] وإني أذكِّرُكُم بأيام الله عندكم، وتَلافِيه بخلافة أمير المؤمنين التي لَمَّت شَعَثَكُم[٧]،

(١) في المطمح، ص ٢٤: «أما بعد، فإن لكل حادثة مقاماً...»، دون ثناء ولا صلاة.

(٢) في المطمح، ص ٢٤١: «وإني قمت...».

(٣) في معجم الأدباء ٥/ ٥٢٢: «وافقهوا»، وفي اقتباس الأنوار، ص ٣٨: «وأيقنوا...».

(٤) في المطمح، ص ٢٤١: «فأصغوا إلي بأسماعكم وألقنوا عني بأفئدتكم معاشر الملأ...».

(٥) في المطمح، ص ٢٤١: «وعلى جميع الأنبياء والمرسلين».

(٦) سقطت في المطمح، ص ٢٤١.

(٧) سقطت في المطمح، ص ٢٤١.

وأَمَّنَت سِرْبكم، ورفعت فَرَقَكم[1] بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقوَّاكم، ومُسْتَذَلِّين فنصركم، ولاَّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضَربت الفتنة سُرَادِقها[2] على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَلُ[3] النفاق، حتى صرتم في مثل حَدَقَة[4] البعير، من[5] ضِيق الحال ونكَد العيش والتغيير[6]، فاستبدلكم[7] بخلافته من الشِّدة بالرخاء، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد[8] كَنَف العافية بعد استيطان البلاء.

أَنْشُدكم الله معاشر[9] الملأ، ألم تكن الدماء مسْفوكة فحَقَنَها[10]، والسُّبُل مَخُوفة فأَمَّنَها[11]، والأمْوَال مُنْتَهَبة فأَحْرَزَهَا وحَصَّنها؟

ألم تكن البلاد خَرَاباً فعَمَّرَها، وثُغُورَ المسلمين مهْتَضَمَة فَحمَاها ونصَرَها؟

فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتَلاَفِيه جَمْع كَلِمَتكم بعد افْتِراقها

---

(١) في المطمح: «خوفكم»، وفي معجم الأدباء: «قوتكم» ٥/ ٥٢٢.
(٢) أي: أحاطت.
(٣) في المطمح: «تشعل».
(٤) سواد العين.
(٥) في المطمح: «مع».
(٦) في أزهار الرياض ٢/ ٢٧٤: «والتقتير».
(٧) في أزهار الرياض ٢/ ٢٧٤: «فاستبدلتم».
(٨) سقطت في المطمح.
(٩) في المطمح: «يا معشر».
(١٠) في المطمح: «فأمنها».
(١١) سقطت هذه العبارة في المطمح.

بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غَيْظَكم، وشفى صدوركم، وصِرْتم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسُكم بينكم.

ناشدتكم اللّـهَ ألم تكن خلافته قُفْلَ الفِتْنة بعد انطلاقها من عِقالِها؟ ألـم يَتَلاف صلاح الأمـور بنفسه بـعـد اضطراب أحوالها ولم يَكِل ذلك إلـى القُـوّاد والأَجْنَـاد، حتـى بـاشَـره بـالقُـوَّة والْمُهْجَـة والأولاد، واعْتِـزال النسوان، وهَجْر الأَوْطان، ورفْضِ الـدَّعَـة وهي مَحْبُوبة، وتَرْك الرُّكون إلى الراحة وهي مطلوبة[1]، بـطَـوِيَّـة صحيحة[2]، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة، وريح هَابَّة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قـاهـر، وجد ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً لِلنَّصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التَّعَب، حتى لانت الأحوال بعـد شِدَّتها وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غـارب[3] إلاَّ جَبَّه، ولا نَجَمَ لأهلها قرن إلاَّ جذّه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبِلَمِّ أمير المؤمنين لشَعَثِكم على أعدائه أعواناً، حتى[4] تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات، وصـارت وفـود الـروم وافـدة عليـه وعليكـم، وآمـال الأَقْصَيـن والأدْنَيـن مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فَجّ عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل

---

(١) من قوله: «بعد أن كان بأسكم... إلى وهي مطلوبة»، سقطت من المطمح، ص ٢٢.

(٢) في المطمح: «خالصة وبصيرة ثابتة وافرة».

(٣) غارب: أعلى مقدم السنام، اللسان (غ ر ب).

(٤) من قوله: «وبصيرة ثابتة... إلى هنا سقطت في الأصل من المطمح، وثبتت في إحدى نسخه، ص ٢٤٢.

بينه وبينكم[1] جملة وتفصيلاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولن يخلف الله وعده. ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وجَفْنُها غير نائم، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[2].

وليس في تصديق ما وعد الله[3] ارْتِيَاب، ولكل نَبأ مُسْتَقَرّ ولكل أجل كتاب.

فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوه[4] المزيد من نَعْمائه، فقد أصبحتم بيمن[5] خلافة أمير المؤمنين أيَّده الله بالعصمة والسداد، وألهمه بخالص التوفيق إلى[6] سبيل الرشاد، أحسنَ الناس حالاً، وأنعَمَهم بالاً، وأَعَزَّهم قراراً، وأَمْنَعَهم داراً، وأَكْثَفَهم جمعاً، وأجملهم صنعاً، لا تُهَاجون ولا تُذادون[7]، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم وابْن عمِّ نبيكم، فإن من نزع يداً[8] من الطاعة، وسعى في

(١) في الأصل من المطمح: «بينكم ليقضي»، ص ك ٢٤٢.
(٢) سورة النور: الآية ٥٥.
(٣) في المطمح: «عز وجل»، ص ٢٤٣.
(٤) في المطمح: «وسلوه»، ص ٢٤٣.
(٥) في معجم الأدباء ٥/ ٥٢٤: «بين».
(٦) ساقطة في المطمح، ص ٢٤٣.
(٧) في المطمح: «ولا تذارون»، ولا تذادون أي لا تدفعون ولا تطردون.
(٨) في المطمح: «يده».

تفريق[1] الجماعة، ومرق من الدين، فقد ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ[2] هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾[3].

وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها، والتمسك بعُرْوَتها، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدَّهْمَاء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتُوفَى العهود، وبها وُصلت الأرحام، ووضعت الأحكام، وبها سدَّ الله الخلل، وأمَّن السبل، ووطَّأ الأَكْنَاف، ورفع الاختلاف، وبها طاب القرار، واطْمَأَنَّت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[4].

وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصُنُوف الْمُلْحِدِين الساعين في شق عصاكم، وتفريق مَلإِكُم الآخذين في مخاذلة دينكم، وهَتْك حريمكم، وتَوْهِين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين، أقول قولي هذا[5]، وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين».

فحار الجميع في حسن إجادته، واتفقوا على استحسان فعله وجمال اسْتِدْراكه، فكان منذر فارس ذلك اللقاء ومَلْهَمَه، فارتفع شأنه وعلا أمره وطار صيته، وكان أكثر الناس تعجباً منه وسروراً أمير المؤمنين الناصر

---

(١) في المطمح: «في فرقة الجماعة».

(٢) في المطمح: «إن ذلك».

(٣) سورة الحج: الآية ١١.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٥) في المطمح: «أقول قولي هذا والحمد لله رب العالمين»، ص ٢٤٤.

الذي وإن لم تكن له معرفة به من قبل، إلاَّ أنه أدرك جميل صنيعه، وإنقاذه للموقف وإنجاحه للحفل، فتوجه إلى ابنه الحكم سائلاً عن المتحدث، فأخبره أنه منذر بن سعيد البلوطي، فقال الناصر لدين الله:

«لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حَبَّر خطبته هذه، وأعدَّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الْوَهْيَ، فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على الْبَديهة لِوَقْته، إنه لأعجب وأغْرب»[1].

إنها شهادة أمير وناقد متبصر، تبرهن على الجهد الجبار الذي بذله منذر في السير بالجمع نحو النجاح، ورَأْب ما اعْتَراه من خلل وهفوة، كما سطرت هذه الشهادة لتبرز قدرة منذر الفائقة على صناعة الكلام، وتنسيق العبارة وإجادة السبك ومطابقة المقام، حتى جاءت خطبته مستوفية كل مقومات فن الخطابة مع عدم سبق إعداد أو تأهب.

ثم قال أمير المؤمنين الناصر لابنه الحكم: «والله... لئن أخرني الله بعد، لأرفعنّ من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه، واستخلصه، وذكرني بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه»[2].

ووصف منذر خطبته بقصيدة بعد الحفل مفتخراً فيها بنفسه ومادحاً أمير المؤمنين قائلاً[3]: [الطويل]

---

(١) اقتباس الأنوار، ص ٤١، والمرقبة العليا، ص ٦٩، ونفح الطيب ١/ ٣٧٢، وأزهار الرياض ٢/ ٢٧٧، ومعجم الأدباء ٥/ ٥٢١.

(٢) مطمح الأنفس، ص ٢٤٥، واقتباس الأنوار، ص ٤١، ونفح الطيب ١/ ٣٧٢.

(٣) وردت في طبقات الزبيدي، ص ٢٩٦، واقتباس الأنوار، ص ٤١، ومطمح الأنفس، ص ٢٤٤، والمعجب، ص ٥٦.

مقالٌ[1] كحَدِّ السيف وسْط المحافل فَرَقْتُ[2] به ما بين حقّ وباطل
بقلْـب ذَكِـي تَـرْتَمـي جَنَبَـاتـه[3] كبَارق رَعْدٍ غيرِ[4] رعْش الأَنَامل[5]
فَمَا دَحِضَتْ[6] رِجْلي ولاَ زَلَّ مِقْوَلي ولاَ طَاشَ عَقْلي يَوْم[7] تِلْكَ الزَّلَازِل
لَخَيْر[8] إمـام كَـانَ أَوْ هُـوَ كَـائِنٌ لِمُقْتبـل أَوْ فِـي الْعُصُـور الأَوَائِـل
وقد حَدَّقت نحوي[9] عيون إخالها كمثل سهام أُثبتت في المقاتل[10]
ترى الناس أفواجاً يؤمُّون دَارَه[11] وكلهـم مـا بَيْـنَ راض[12] وآمـل
وفـودُ ملُـوك الـروم وَسْـط فنـائـه مَخَـافَـةَ بـأْسٍ أو رَجَـاء لِنَـائِـل
فَعِشْ سالماً أَقْصَى حَيَاةَ مُعَمِّرٍ[13] فأنت غيَّاث كل[14] حافٍ وناعِل

---

(١) في المعجب، ومعجم الأدباء: «مقالي».
(٢) في معجم الأدباء: «أميز».
(٣) في المعجب، والنسخة «ك» من نفح الطيب: «جمراته».
(٤) في نفح الطيب: «عند».
(٥) في معجم الأدباء ورد البيت هكذا:
بقلـب ذكـي قـد تـوقـد نـوره كبـرق مضـيء عنـد تسكـاب وابـل
(٦) في معجم الأدباء: «فما زلقت».
(٧) في معجم الأدباء: «عند».
(٨) في المعجب، ومعجم الأدباء: «أخير».
(٩) في المعجب، ونفح الطيب، ومعجم الأدباء: «حولي».
(١٠) وهذا البيت ساقط من طبقات الزبيدي، وقدم في المعجب، ومعجم الأدباء على البيت الذي قبله.
(١١) في طبقات الزبيدي: «فضله»، وفي المعجب، ونفح الطيب: «بابه».
(١٢) في المعجب، ونفح الطيب: «راج»، والبيت ساقط من معجم الأدباء.
(١٣) في المعجب، ص ٥٧، ونفح الطيب، ومعجم الأدباء: «حياةٍ مؤمَّلاً».
(١٤) في المعجب، ومعجم الأدباء: «رجاء الكل».

ستملكها ما بين شرق ومغرب   إلى درب قُسْطَنْطين أو أَرْضِ بابِلِ[١]

وقال منذر أيضاً مفتخراً بصنيعه وعاتباً على الجاهلين بقدره[٢]:

[البسيط]

هذا المقال[٣] الذي ما عابَه فَنَدُ   لكن قائله[٤] أَزْرَى به البلدُ
لو كنت فيهم غَرِيباً كنت مُطَّرفا[٥]   لكنني منهم فاغتالني النَّكدُ[٦]
لولا الخلافة أبقى الله بَهْجَتها[٧]   ما كُنْت أبقى[٨] بأرضٍ ما بها أحدُ

كأنه عرَّض بأبي علي القالي وتقديمهم إياه في هذا المقام، والله تعالى أعلم[٩].

وما انصرم الحفل حتى سطع نجم منذر عالياً يُشَار إليه بالبنان، وتتطاول لرؤيته الأعناق، ولا حديث لأهل الأندلس تلك الأيام إلاَّ عن ثباته وبلاغة منطقه، فطارت خطبته في الآفاق وتناقلتها الركبان.

---

(١) في طبقات الزبيدي: «إلى أرض قسطنطين أو درب بابل»، وفي معجم الأدباء: «إلى أرض قسطنطين أو أرض بابل».

(٢) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٦، وجذوة المقتبس، ص ٣٢٦، والمعجب، ص ٥٥، ونفح الطيب، ١/ ٣٧٤، والسير للذهبي ١٦/ ١٧٤.

(٣) في المعجب، ونفح الطيب: «المقام».

(٤) في الجذوة، ص ٣٢٦، والمعجب، ص ٥٥، والسير للذهبي، ١٦/ ١٧٤: «صاحبه».

(٥) هكذا في الجذوة، ص ٣٢٦، والمعجب، ص ٥٥، والسير للذهبي ١٦/ ٣٧٤، ونفح الطيب ١/ ٣٧٤، وفي طبقات الزبيدي: «مطرحاً».

(٦) ويروى بدل هذا الشطر: «ولا دهاني لهم بغي ولا حسد». انظر: نفح الطيب ١/ ٣٧٤.

(٧) في المعجب: «مهجتها»، وفي نفح الطيب: «حرفتها».

(٨) في نفح الطيب: «أرضي».

(٩) المعجب، ص ٥٥، ونفح الطيب ١/ ٣٧٤، حكاية عن ابن سعيد.

ووفاء للوعد الذي قطعه الناصر على نفسه، وتنزيلاً لمنذر مقاماً يليق بجلالة قدره، وعظيم فضله، عيَّنه إماماً وخطيباً في المسجد الجامع بالزهراء في قرطبة[1]، فكانت الجموع العظيمة والوفود الغفيرة تحج إلى هذا المسجد يوم الجمعة خصوصاً لسماع خطبة منذر الذي كانت له ملكة عجيبة في إثارة مشاعر السامعين.

ومن خطب منذر المشهودة أيضاً: أن الناس لما أصيبوا بجفافٍ وقحط شديدين في أواخر عهد الخليفة الناصر أمر منذراً بالخروج للناس من أجل الاستسقاء، فكان من شدة تقواه وورعه أن قدم بين يديه صيام ثلاثة أيام تنفلاً واستجداء ورهبة، فاجتمع الناس له في مصلى الربض بقرطبة بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم، حتى غصَّ بهم المكان وامتلأت جوانبه، وكان من جملة الحاضرين أمير المؤمنين الناصر.

فلما حان الوقت أبطأ منذر وتأخر حتى يكتمل اجتماع الناس، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبتاً متخشعاً، فصعد المنبر ليخطب، فلما رأى بِدَار الناس إلى ارتقائه واستكانتهم من خيفة الله وإخباتهم إليه، رقَّت نفسه وغلبته عيناه فاستعبر وبكى حيناً، ثم استفتح خطبته بأن قال:

«يا أيها الناس سلام عليكم».

ثم سكت ووقف شِبْه الْحَصِر ولم يكُ من عادته، فالتفت الناس بعضهم إلى بعض متعجبين لا يدرون ما عراه، ولا ما أراد بقوله، ثم اندفع تالياً لقوله تعالى:

---

(١) قضاة قرطبة، ص ١٧٥، وتاريخ العلماء ٢/ ١٤٢، ومطمح الأنفس، ص ٢٤٥، ونفح الطيب ١/ ٣٧٢.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[1]، ثم قال:

«استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وتَزَلَّفُوا بالأعمال الصالحة لديه».

فضج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء، وارتفعت الأصوات بالاستغفار والتضرع إلى الله تعالى بالسؤال والرغبة في إرسال الغيث، ومضى على تمام خطبته، فأفزع النفوس بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكيره، فلم يَنْقَضِ النهار حتى أرسل الله السماء بماء مُنْهَمِر، رَوَّى الثَّرَى، وَطَرَدَ الْمَحَل[2]، وسكَّن الأَزْل[3]، والله لطيف بعباده[4].

وكان لمنذر في خطب الاستسقاء استفتاح عجيب، وبراعة عالية في الاستشهاد بالقرآن، فمن ذلك أن خرج يستسقي بالناس يوماً، وقد سَرَّحَ بصره في جموع الحاضرين عندما شخصوا إليه بأبصارهم، فهتف بهم كالمنادي: يا أيها الناس. . . ، وكررها عليهم مشيراً بيده، ثم قال:

﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾[5].

فاشتد وجل الناس وانطلقت أعينهم بالبكاء، ومضى في خطبته، فلم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٢) المحل: الجدب. انظر: القاموس المحيط: (م ح ل).

(٣) الأزل: الضيق والشدة، القاموس المحيط: (أ ز ل).

(٤) مطمح الأنفس، ص ٢٤٩ ـ ٢٥١، واقتباس الأنوار، ص ٤٣، والمرقبة العليا، ص ٧٠، ٧١، ونفح الطيب ١/ ٥٧٢.

(٥) سورة فاطر: الآيات ١٥ ـ ١٧.

يَنْفَض الْمَجْمَعُ حتى نزل غيث عظيم[1].

وقد رُوي أن منذرَ بن سعيد وقبل خروجه للاستسقاء سأل رسول الناصر الذي حمل الأمر إليه بالاستسقاء قائلاً:

«فليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة في يومنا هذا؟

فقال: ما رأيته قط أخشع منه في يومه هذا، إنه منفرد بنفسه، لَابِسٌ أخشن الثياب، مفْتَرِشٌ التراب، قد عَلاَ نحيبه، واعترافه بذنوبه، يقول: رَبِّ هذه ناصيتي بيدك، أتُّراك تعذب الرعية وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم أن يفوتك مني شيء؟».

فلما سمع منذر هذا الكلام، تهلَّل وجهه واستبشر خيراً، وقال في عزيمة صادقة، ورجاء من رب كريم:

«يا غلام احمل الممطرة معك، إذا خشع جَبَّار الأرض رَحِم جبار السماء»[2].

كلمات صدق انطلقت من فؤاد فاضت جوانبه وامتلأت أركانه بحب الله وخشيته، تعكس مدى رسوخ الإيمان فيه، ودرجة الإخلاص والتيقظ الذي وصل إليه، ففتح الله عليه وأراه بنوره، يقول ابن العماد الحنبلي رحمه الله فيه:

«له الخطب المفحمة الخالصة، الخارجة من قلب مخلص سليم»[3].

---

(١) مطمح الأنفس، ص ١٧٦، واقتباس الأنوار، ص ٤٤، والمرقبة العليا، ص ٧١، ونفح الطيب ١/ ٥٧٢، ٥٧٣، وأزهار الرياض ٢/ ٢٨٠.

(٢) مطمح الأنفس، ص ٢٥١، ونفح الطيب ١/ ٥٧٣، والكامل ٧/ ٣٤٧، والبداية والنهاية ١١/ ٣٤٧، والسير للذهبي ١٦/ ١٧٦، ١٧٧.

(٣) شذرات الذهب ٤/ ٢٨٩.

وقال ابن بشكوال: «لم يكن بالأندلس أخطب منه. . . مع اليقين في الدين والْوَرَع وكثرة الصيام والتهجد. . . وقد استسقى غير مرة فَسُقي»[١].

ومع كل ما تميز به منذر بن سعيد من مقدرة عالية في الخطابة، والتبوأ لمكانة مرموقة، فإنه كان من أشد الناس تواضعاً واطّراحاً، حتى إنه ليظهر عليه ذلك في خطبه أمام الملأ، فقد ذكر ابن أصبغ الهمداني أن منذراً خطب يوماً وأراد التواضع، فقال[٢]:

«حتى متى وإلى متى أَعِظ غيري ولا أَتَّعظ[٣]، وأَزْجُر ولا أَزْدَجر، أَدُلُّ على الطريق المستدلين[٤]، وأبقى مقيماً مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾[٥] الآية، اللّٰهم فَرِّغْنِي لِمَا خلقتني له، ولا تشغلني بما تَكَفَّلْت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك، يا أرحم الراحمين»[٦].

---

(١) السير للذهبي ١٦/ ١٧٤.

(٢) انظر ذلك في: المرقبة العليا، ص ٦٩، ونفح الطيب ٢/ ٢، ٢١، وأزهار الرياض ٢/ ٢٧٧، والسير للذهبي ١٦/ ١٧٨.

(٣) في المرقبة العليا: «وإلى متى فكم الخطب أعظ ولا أتعظ».

(٤) وردت هذه العبارة في المرقبة العليا، ونفح الطيب وأزهار الرياض: «أدل الطريق على المستدلين»، ويظهر والله أعلم أن الصواب هو ما ذكرناه نقلاً عن السير للذهبي ١٦/ ١٧٧.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

(٦) المرقبة العليا، ص ٦٩.

رابعاً: القضاء[1]:

إذا كان منذر قد بلغ حدًّا لا يُجارى في الخطابة والبلاغة، ووصل في علوم الشرع واللغة إلى مستوى رفيع، فإن مكانته في القضاء والحكم قد بلغت الحد الأعلى والأفق الأسمى؛ إذ صار قاضي الأندلس، وناصِب القسط والعدل فيها بعدما تقلَّد منصب قاضي الجماعة، أو قاضي القضاة كما يصطلح عليه عند المشارقة.

لهذا، فقد كان لقب القاضي أشد الألقاب اتصالاً به وملازمة له، مما يبرز الأثر الواضح الذي كان لهذا المنصب في حياة منذر العامة، حيث استطاع من خلاله مراكمة عدة عطاءات وإنجازات عادت بالرخاء على الحياة العامة في الأندلس.

وتحسن الإشارة إلى أنه إذا استعرضنا قضاء الجماعة بقرطبة في نهاية القرن الرابع الهجري وجدنا أن من شغل تلك الوظيفة كان لا بد أن يكون قد تمرَّس بالقضاء في أحد الكُوَر الأندلسية خارج قرطبة، فإن ظهرت عليه مؤهلات معتبرة تمكن من اعتلاء قضاء الجماعة، ويصبح هو المسؤول عن شؤون القضاء والمُرشِّح لمن يصلح لهذا المنصب من علماء الأندلس، ثم يعتمد الخليفة تلك المشورة فينصِّب المعني بالأمر، وهذا يدل على المكانة العالية التي كانت لقاضي الجماعة[2].

وقد تنقل منذر قاضياً في عدة مناطق من الأندلس قبل أن يعتلي قضاء

---

(١) انظر: طبقات الزبيدي، ص ٢٢١ ـ ٢٩٦، وقضاة قرطبة، ص ١٧٥، وجذوة المقتبس، ص ٣٢٦، وتاريخ العلماء والرواة، ص ١٤٢، ومطمح الأنفس، ص ٢٣٨، إنباه الرواة ١/ ٣٢٥، ونفح الطيب ٢/ ٢١، ٢٢.

(٢) انظر: تاريخ القضاء في الأندلس لخلاف ص ١٧٨.

الجماعة، فقد تولى قضاء ماردة، وما والاها من مدن الجوف، ثم وليَ بعدها قضاء الثغور الشرقية بطُرْطُوشَة ونواحيها، وبعد ذلك وَلَّاه الناصر قضاء الجماعة بقرطبة[1].

وكان تولي منذر لقضاء ماردة وما حولها في بداية العقد الثالث من القرن الرابع على سبيل التقريب، فكانت ولايته على أهل هذه المناطق رحمة وقياماً بالحق وبسطاً لِلْعدل والضرب على أيدي الظالمين والمتربصين بدولة الإسلام في الأندلس، فاستبشر الناس به خيراً، وسادت الطمأنينة هذه المناطق في عهده.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة نقل القاضي إلى قضاء الثغور الشرقية بطرطوشة، فسار في قضائها سيرة القضاة الصالحين القائمين بالحق والحاكمين بالقسط، ولم يكن منصب منذر يقتصر على وظيفة القضاء في هذه المناطق فقط، بل أسندت إليه عدة مهام أخرى لما عرف عليه من حزم وصلابة وشدة في إقامة الشرع وبسط العدل، فقد جمع إلى جانب القضاء مراقبة الولاة والعمال وموظفي الدولة بتلك المناطق، ومتابعة أحوالهم مع الرعية، إضافة إلى الفصل والقضاء بين المتخاصمين من الإفرنج، قال أبو عبيد القاسم بن خلف الجبيري[2]:

«وكانت ولاية منذر للثغور مع الإشراف على العمال بها، والنظر في

---

(1) والسيوطي ذكر أنه تولى قضاء الجماعة بغرناطة. البغية، ص ٣٠١، والصواب ما أثبتناه.

(2) هو قاسم بن خلف بن فتح الجبيري الطرطوشي، كان فقيهاً عالماً حسن النظر، توفي سنة ٣٧١هـ محبوساً. تاريخ العلماء ١/ ٤١٠.

المختلفين من بلاد الإفرنج إليها»[1]، واستمر قضاء منذر لهذه المناطق زهاء الثماني سنوات.

ورغم عظم التكليف الذي حمل به كاهل منذر وثقل المسؤولية وخطورتها وازدحام وقته بالنظر في الأقضية، والجلوس للناس إلاَّ أنه لم يفتر عن نشر العلم وإدامة النظر في الكتب متى وجد إلى ذلك سبيلاً ومنفذاً.

فقد روى ابن الأبار بسنده إلى أبي عبيد القاسم أنه قال: «نزل القاضي منذر بن سعيد على أبي بطرطوشة وهو يومئذ يتولى القضاء في الثغور الشرقية... فأنزله في بيته الذي يسكنه، فكان إذا تفرغ نظر في كتب أبي فمرّ على يديه كتاب فيه أرجوزة ابن عبد ربه[2] يذكر فيها الخلفاء، ويجعل معاوية رابعهم، ولم يذكر علياً فيهم، فلما رأى ذلك منذر غضب وسب ابن عبد ربه، وكتب في حاشية: [الكامل]

أوَمَا عليٌّ لا برِحْتَ ملَعَّنا ... يابن الخبيثة عندكم بإمام

ربُّ الكساء وخيرُ آل محمد ... داني الولاء مُقدَّم الإسلام[3]

وفي يوم الجمعة لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة[4] ولي منذر قضاء الجماعة في عاصمة الأندلس قرطبة، بعد القاضي محمد بن أبي عيسى، وإضافة لفظ القضاء إلى الجماعة جرى

---

(١) التكملة لكتاب الصلة ١/ ٢٣٩. وانظر: المقتبس ٥/ ٤٨٨.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه، من أهل العلم والأدب والشعر، صاحب الكتاب الكبير (العقد الفريد)، توفي سنة ٣٢٨هـ. انظر: الجذوة، ص ٩٤.

(٣) التكملة لكتاب الصلة ١/ ٢٣٩، ونفح الطيب ٢/ ٥١١.

(٤) وقد أخطأ صاحب طبقات المفسرين حين جعل تاريخ توليه لقضاء الجماعة هو ٣٥٥هـ، وهذا إنما هو تاريخ وفاته ٢/ ٣٣٧.

التزامه بالأندلس، ويظهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة، إذ كانت ولايتهم من قبل إنشاء هذا المنصب تتم غالباً من قبل السلطان، وبالتالي فهذا الاسم لم يكن قديماً بل تواضع عليه أهل الأندلس فيما بعد[1].

وقد تولى منذر هذا المنصب والأندلس تعج بأكابر العلماء والفقهاء، مما يبرز مكانة منذر العلمية، وباعه الطويل في علوم الفقه والأحكام، إضافة إلى تجربته القضائية الطويلة، مع ما حباه الله به وأضفاه عليه من الهيبة والجلال والوقار، وربطة الجأش، وقوة الشكيمة، وعلوِّ الهمة، والصلابة في الحق، مع التواضع والورع، فكان آية في العدل وإثبات الحق، وإزهاق الباطل، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يحابـي أحداً في حق من حقوق الله أو حقوق الناس مهما كان جاهه وعلا سلطانه، مسارعاً إلى إنصاف المظلوم والأخذ على يد الظالم، فسعدت به الأندلس عموماً وسعدت به قرطبة خصوصاً.

قال عنه الزبيدي: «ولي قضاء الجماعة بقرطبة... فما حُفظ له جَور في قضية ولا هوادة بسبب غاية»[2].

وكان منهج منذر في القضاء يقوم على الصلابة والشدة في إثبات الحقوق ومتابعتها وإيصالها إلى أصحابها، ولو تَطَلَّب مباشرة ذلك بنفسه، فمن ذلك خروجه بنفسه وتحمله المشاق والمتاعب من أجل حيازة أرض محبسة، حيث سار في موكب يجمعه هو وأمناؤه يحملون الخرائط والرسوم الدالة على المكان وموقعه بالتحديد، فكان عمله هذا فريداً ما عهد على القضاة الذين سبقوه ولا على الذين عاصروه، كل هذا من شدة توثقه وتثبته

---

(١) انظر: المرقبة العليا، ص ٣٩ طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٦.

وإحساسه بعظم المسؤولية والأمانة الملقاة على عاتقه رحمه الله[١].

ومن نماذج صلابته وشدته في إقامة الحدود: أنه لما قبض على أبي الخير المسمى بأبي الشر الزنديق، أفتى مجموعة من الفقهاء بالإعذار له، ورفعوا ذلك إلى أمير المؤمنين الحكم، فقام منذر وآخرون وأفتوا بعدم الإعذار وطرحه، فأمر الْحَكم بالأخذ برأي منذر ومن وافقه، وأمر بقتله دون إعذار[٢].

كما قام منهجه القضائي على اعتماد مذهب مالك رحمه الله في إصدار الأحكام، وإن كان مذهب منذر الفقهي مخالفاً لما عليه المالكية في الأندلس، فقد كان منذر رحمه الله «يتفقه بفقه أبي سليمان داود الأصبهاني... فإذا جلس مجلس الحكم قضى بمذهب مالك وأصحابه رحمهم الله»[٣]، مما يدل على سعة أفقه، وتمام عدله وتبصُّره بأمور القضاء.

واعتماد منذر القضاء بمذهب مالك رحمه الله إنما كان لشدة تعلق أهل الأندلس بهذا المذهب حتى صار هو مذهب البلاد الرسمي الذي به الحكم والقضاء، وبالتالي فلا يحسن بقاض فطن أن يحاكم الناس بخلاف ما ارتضوه واطمأنوا إليه من أحد المذاهب المعتبرة، إلاَّ أن يكون هذا المذهب قد خالف الصواب في قضية ما، فيحق للقاضي أن يخرج إلى غيره مبيِّناً دليله في ذلك[٤].

---

(١) مطمح الأنفس، ص ٢٥٥، ونفح الطيب ٢/ ١٨.

(٢) ترتيب المدارك لعياض ٦/ ١٢٨، ١٢٩.

(٣) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

(٤) وهذا القول الوجيه كنت سمعته من شيخنا العلامة قاضي المدينة المنورة عطية بن محمد سالم المصري (ت ١٤٢٠هـ) بالمدينة المنورة رحمه الله ونحن نرتشف من علومه بالحرم النبوي الشريف.

وكانت لمنذر عبقرية عالية في إدارة القضاء، وفطنة وذكاء حادَّان في استنباط الأحكام، حتى أن العلماء ليقفون متأملين ومتدبِّرين في غرائب اجتهاداته ودقة استنباطاته، فمن ذلك حكمه القضائي في دارٍ لأيتام بقرطبة، استمده من قصص السابقين الواردة في القرآن، ومجمل القضية:

أن داراً كانت بقرطبة تعود لأيتام، أراد الناصر شراءها لحظِيَّة من نسائه، فأرسل من قَوَّمها له بثمن بخس تطيب به نفسه، فبعث إلى وصي الأيتام في بيعها عليهم، فذكر أنه لا يجوز إلاَّ بأمر القاضي، فأرسل الخليفة إلى منذر القاضي في بيع الدار، فقال لرسول الناصر:

«البيع على الأيتام لا يصح إلاَّ لوجوه:

منها: الحاجة.

ومنها: الوهي الشديد.

ومنها: الغبطة.

فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهي فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تتبين به الغبطة، أَمَرْتُ وصيهم بالبيع وإلاَّ فلا».

فلما سمع الناصر بالخبر أظهر الزهد في شراء الدار استكثاراً لما قد يطلب من مبلغ فيها، فخاف منذر أن يتعرض الأيتام لبعض الضغوط، فأمر الوَصِي بنقض الدار وبيع أنقاضها، وكانت قيمة الأنقاض أكثر مما قوِّمت به الدار بجملتها للناصر، فلما سمع الخليفة الخبر وَبَّخَ الوصي وأرسل للقاضي وسأله:

هل أنت أمرت بذلك؟

قال: نعم!

قال: وما دعاك لذلك؟

قال: «أخذت فيها بقول الله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[1]، فمُقَوِّموك لم يقدِّروها إلاَّ بكذا، وبذلك تعلق وهمك، فقد نَضَّ[2] في أنقاضها أكثر من ذلك».

فقال الناصر: «نحن أوَّلَ من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيراً»[3].

موقف عظيم يُبرز ما ينبغي أن يكون عليه القاضي العادل والعالم الرباني، أو صاحب الفكر البناء، من إيثار مصلحة الأمة والحقِّ على مصلحته الذاتية، والجهر بالإصلاح من خلال وظيفته ومنصبه[4].

والمتتبع لأقضية منذر وأقواله رحمه الله يجد أنه ممن بلغ رتبة الاجتهاد، فقد كثر النقل عنه في كتب الأحكام والفتيا، وتداول آراءه القضاة وأعجبوا باجتهاداته واستنباطاته، حتى عدُّوه من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم، فهذا القاضي الجليل أبو عبد الله ابن عياش الخزرجي[5] كان يستحسن غاية الاستحسان قول الإمام منذر في التزكية:

«اعلم أن العدالة من أشدّ الأشياء تفاوتاً وتبايناً، ومتى حصَّلتَ ذلك

---

(١) سورة الكهف: الآية ٧٩.

(٢) أي تحصَّل من الدراهم والدنانير. المصباح المنير: (نضض).

(٣) مطمح الأنفس، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤، ونفح الطيب ٢/ ١٦، ١٧.

(٤) انظر: ابن عبد البر الأندلسي ليث جاسم، ص ٣١٥.

(٥) انظر ترجمته في: المرقبة العليا، ص ٣٨ طبعة دار الكتب العلمية.

عرفتَ حالة الشهود؛ لأن بَيْن عدالة أصحاب النبـي ﷺ وعدالة التابعين رضي الله عنهم بوناً عظيماً، وتبايناً شديداً، وبين عدالة أهل زماننا، وعدالة أولئك، مثل ما بين السماء والأرض، وعدالة أهل زماننا، على ما هي عليه، بعيدة التباين أيضاً.

والأصل في هذا عندي ــ والله الموفق للصواب ــ أن من كان الخير أغلب عليه من الشر، وكان مُتَنَزِّهاً عن الكبائر، فواجب أن تُعْمل[1] شهادته؛ فإن الله تعالى قد أخبرنا بنصّ الكتاب أن: ﴿مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾[2]، وقال في موضع آخر: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾[3]، فمن ثقلت موازين حسناته بشيء لم يدخل النار، ومن استوت حسناته وسيّئاته، لم يدخل الجنة في زمرة الداخلين أوَّلاً؛ وهم أصحاب الأعراف، فذلك عقوبة لهم؛ إذ تخلفوا أن تزيد حسناتهم على سيئاتهم. فهذا حكم الله في عباده.

ونحن إنما كُلِّفنا الحكم بالظاهر؛ فمن ظهر لنا أن خيره أغلب عليه من شره، حكمنا له بحكم الله بعباده، ولم نطلب له علم الباطن، وَلا كُلِّفه محمد ﷺ، فقد ثبت عنه أنه قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَن بحُجَّته من بعض، فأحكم له على نحو ما أسمع»[4]، فأحكام الدنيا على ما ظهر، وأحكام الآخرة والعلم عند الله

---

(١) إعمال الشهادة قبولها والعمل بها.

(٢) سورة القارعة: الآيتان ٦، ٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحيل (٦٩٦٧) ١٢/ ٤٢٤ من فتح الباري طبعة دار السلام الثالثة.

عز وجل على ما بطن؛ لأن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، ونحن لا نعلم إلاّ الظاهر.

ولأهل كلّ بلد قوم قد تراضى عليهم عامَّتهم، فبهم تنعقد مناكحهم وبيوعهم، وقد قدَّموهم في مساجدهم، ولِجُمَعهم وأعيادهم، فالواجب على من استقضِيَ في موضع، أن يقبل شهادة أمثالهم، وفقهائهم، وأصحاب صلواتهم، وإلاَّ ضاعت حقوق ضعيفهم وقويّهم، وبطلت أحكامه.

ويجب عليه أن يسأل إن استراب في بعضهم في الظاهر والباطن عنهم، فمن لم يثبت عنده عليه اشتهار في كبيرة، فهو على عدالة ظاهرة حتى يثبت غير ذلك»[1].

وكما هي عادة مجالس القضاء غالباً فإنها لا تخلو من حدوث بعض الأمور المستطرفة والمواقف الغريبة التي يتندر بها في الاجتماعات، وتروى على سبيل التفكه، لكنها تدل على حصافة القاضي وتوقد فطنته واهتمامه بإظهار الحق وإماطة الظلم، من ذلك ما أُخْبِرَ بِهِ منذر من أن بعض الشهود تألَّبوا مع خصم أحد المتحاكِمَيْن، وكانت أسماء جميعهم متفقة في الوزن، فلما رآهم قال رافعاً صوته: يا ابن صيفون ويا ابن زيدون ويا ابن سحنون من الرَّبَض الملْعون، أُلقوا ما أنتم ملقون، فلما سمعوا قوله تَسَلَّلُوا ولاذوا بالفرار[2].

وبهذه السيرة القضائية العطرة طار صيت منذر في مجال القضاء، وبلغت شهرته الآفاق، وتحدثت الركبان بعدله وحزمه ونزاهته وصلابته في الحق، ورشده ورجاحة عقله وتثبيت حدود الله وشرعه.

---

(١) المرقبة العليا، ص ٧٣، ٧٤، وأزهار الرياض ٢/ ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) الروض المعطار، ص ٩٥.

ولذلك فقد وَقَّرته العامة والخاصة، وهابه السلطان، فلم يكن أحد يجترىء على مخالفة الشرع وتجاوز حدوده، فشاع في عهده العدل، واستتب الأمن، وازدهرت الحياة العلمية، وكثرت الإنجازات الاجتماعية من الأوقاف والربط.

وبرغم بسطه رحمه الله للعدل وإقامة الحق، فإنه لم يَغِب عن نفسه ولا لحظة خطورة ما أُوكل إليه، وعِظَم ما حُمِّل به، ولهذا فما كان يجد فرصة للتخلص من القضاء والحكم بين الناس إلاَّ طلب الاستقالة والإعفاء، لكنه لم يُجَب، يقول ابن خاقان بأنه قد «استعفى مراراً فما أعفي»[1].

وقد استمرت ولايته لقضاء الجماعة بقرطبة في عهدي الناصر وابنه المستنصر، ودامت ستة عشر عاماً كاملة، لم يُحفظ عليه فيها جور في قضية، ولا قسم بغير سوية، ولا ميل بهوى، ولا إصغاء إلى غاية، رحمه الله تعالى ورضي عنه[2].

وخير ما نختم به هذا المبحث ما قاله فيه ابن خاقان:

«... ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن، ناهيك من عدل أظهر، ومن فضل أشهر، ومن جَور قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفض، وكان مهيباً صليباً صارماً غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم... لم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور، ولا عُدَّت عليه في حكومته زلة»[3].

---

(١) المطمح، ص ٢٣٨.

(٢) انظر: نفح الطيب ٢/ ٢١، ٢٢.

(٣) المطمح، ص ٢٣٨.

خامساً: التأليف:

كما هو حال العلماء الراسخين في العلم، فإن القاضي منذراً ما ترك ميداناً أو مجالاً يعود على الأمة بالنفع إلاَّ وطرقه وبرع فيه، فلم يقض نَحْبه رحمه الله إلاَّ بعد أن ترك للأمة الإسلامية إرثاً علمياً ومعرفياً في شتى العلوم والفنون، وساهم في إثراء المكتبة الإسلامية بمؤلفات مفيدة وكتب جامعة، تناقلها أهل العلم شرقاً وغرباً، وأثنوا عليها وعلى مصنفها، ووصفوها بالجودة والإبداع، يقول الزبيدي:

«. . . وكان ذا علم بالقرآن، حافظاً لما قالت العلماء في تفسيره وأحكامه، ووجوهه في حلاله وحرامه. . . له فيه كتب مفيدة»[١].

وقال عنه أمير المؤمنين الحكم:

«. . . وكان أعلم الناس باختلاف العلماء، . . . وله تصانيف حسان جدًّا»[٢].

وقال ابن الفرضي:

«وله كتب مشهورة كثيرة مؤلفة: في القرآن، والفقه، والرد، أخذها الناس عنه وقرأوها عليه»[٣].

وقال ابن العماد الحنبلي:

«وكان فطناً مناظراً ذكياً. . . كثير التصانيف»[٤].

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) السير للذهبي ١٦/ ١٧٥.

(٣) تاريخ العلماء ٢/ ١٤٣.

(٤) شذرات الذهب ٤/ ٢٨٩، ومرآة الجنان ٢/ ٣٥٨، والعبر ٢/ ٩٦.

وسوف أعقد فصلاً خاصًا للحديث عن مؤلفاته بالتفصيل.

سادساً: الإصلاح السياسي[1]:

عاصر منذر كما تقدم الدولة الأموية في الأندلس، وشاء الله تعالى أن يحيا أهم فترات عمره، ودولة بني أميَّة في أزهى عصورها، وقمة عطائها وإنجازاتها، إبان حكم أمير المؤمنين الناصر، وابنه الحكم.

ونظراً لما تميزت به هذه الدولة العتيدة من صلاح ببسط العدل وإقامة الشورى، والذود عن حياض الإسلام وعقيدته السليمة[2]، والوقوف عند حدود الله تعالى وتطبيق شرعه، فإن منذراً القاضي لم يدخر جهداً في موالاتها، والوقوف في صَفِّها، ولاَءَ ووقوف العالم الفَطِن، والقاضي المتبصر، الذي يدور مع الحق حيث دار، بحيث لم يمنعه ولاؤه من إسداء النصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللِّين تارة، وبالشدة والتقريع تارة أخرى، ليَرْتَدع كل مخالف، حتى ولو كان السلطان الأعظم.

قال ابن خاقان:

«وكان القاضي منذر بن سعيد من ذوي الصلابة في أحكامه، والمهابة في أقضيته، وقوة القلب في القيام بالحق في جميع ما يجري على يديه، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه»[3].

وله في ذلك نماذج رائعة، ومواقف خالدة، تشهد بشجاعته النادرة في

---

(١) انظر: المطمح، ص ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، والمغرب في حلي المغرب ١/ ١٨٣، والمرقبة العليا، ص ٦٩ ـ ٧٢، ونفح الطيب ١/ ٥٧٠، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، و ٢/ ١٦، ١٧، وأزهار الرياض ٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٩.

(٢) بغزو قلاع النصارى، ومقاومة المد الرافضي العبيدي في بلاد المغرب.

(٣) مطمح الأنفس، ص ٢٥٢.

إحقاق الحق، والزجر عن المنكر، والدفاع عن مصلحة الأمة، جعلت منه عَلَماً للنزاهة والصلابة في الحق.

الموقف الأول[1]: ما روي أن أمير المؤمنين الناصر شغله بناء مدينة الزهراءِ لِما كان معروفاً عليه من كلف بالعمارة، وإقامة المعالم، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعز السلطان، فأفضى به الإغراق في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة بنائها إلى التخلف عن صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث مرات، فأراد القاضي منذر بن سعيد رحمه الله وجه الله في أن يعظه ويقرِّعه بالتأنيب، ويغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب، والتذكير بالإنابة، فصعد المنبر في إحدى الجمع، والناصر وجميع الناس حاضرون، فاستهل خطبته بقوله تعالى:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾[2].

ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، جاش به صدره، وقذف به على لسانه بحره، وأفضى في ذلك إلى ذم المشيَّد والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه، فما بذلك تقاس حضارات الأمم، وإنما بمدى صلاحها، وشيوع العدالة فيها، ثم أتى بقوله تعالى:

---

(١) انظر: المطمح، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨، واقتباس الأنوار، ص ٤١، ٤٢، والمرقبة العليا، ص ٦٩، ٧٠، ونفح الطيب ١/ ٥٧٠، ٥٧١، وأزهار الرياض ٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٩، وابن عبد البر الأندلسي لليث جاسم، ص ٣١٣، ٣١٤.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٢٨ ـ ١٣٥.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[1].

وأتى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير منه، والدعاء إلى الزهد في هذه الدنيا الفانية، والحض على اعتزالها، والندب إلى الإعراض عنها، والترغيب في الآخرة، والتقصير عن طلب اللذات، ونهي النفس عن اتباع الشهوات، حتى بكى الناس وخشعوا، وأعلنوا الدعاء إلى الله تعالى والتوبة إليه، والابتهال في المغفرة، وعلم الخليفة أنه المقصود بذلك فبكى، وندم على ما اقترفه، واستعاذ بالله من سخطه، واستَوْهَبه من صَفْحه ورحمته، إلاَّ أنه غضب على القاضي منذر لغلظ ما قرَّعه به.

وفي نهاية الصلاة الْتَفَت الناصر إلى ابنه الحكم، وقال له:

«والله لقد تعمّدني منذر بخطبته، وأسرف في ترويعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، وصيانتي عن توبيخه»، وأَقْسَم ألا يُصلي الجمعة خلفه أبداً.

فأشار عليه ولي عهده بعزله واستبداله بغيره، فزجره ووبَّخه، وقال له:

«أمِثلُ منذر بن سعيد في فضله ووَرَعِه وعلمه وحلمه لا أُمَّ لك... يُعزل في إرضاء نفس ناكبة عن الرشد! هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه وقَذَ نَفْسي، وكاد أن يُذهبها، والله لَوَدِدْت أني أجد سبيلاً إلى كفارة

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ١٠٩، ١١٠.

يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، فما أظننا نغتاظ منه أبداً».

ولكن كل ما فعله الناصر أنه انقطع عن صلاة الجمعة خلف منذر، وانتقل إلى الصلاة خلف أحمد بن مطرف.

صورة مشرقة في التعامل بين العالم العامل الذي لا يداهن في دين الله، والحاكم العاقل المقرّ بتقصيره.

الموقف الثاني[1]: لما اكتمل بناء مدينة الزهراء دعا الخليفة الناصر منذر بن سعيد للمشاركة في افتتاحها وحضره جمع من العلماء، والوزراء، وأعيان الأندلس، وكان الناصر قد أضفى على الزهراء من الزينة والزخرفة ما جعل جُمُوع الحاضرين يقفون إجلالاً وإعجاباً لما شاهدوه من قراميد الذهب والفضة التي وضعت على القُبَيبة الصغرى، مما جعلها تبدو صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، تسلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعشعة، فقام الناصر فيهم مفتخراً بما صنعه قائلاً:

«هل رأيتم قبلي أو سمعتم من فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟».

فقالوا:

«لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد في شأنك كله، ولا سبقك في مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره».

فأبهجه قولهم وطرب لمديحهم، فلما رأى قاضينا منذر ما دخل على الخليفة والحاضرين من الغرور بالترف وإضاعة مال الأمة فيما لا طائل من

---

(١) المطمح، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩، واقتباس الأنوار، ص ٤٢، ٤٣، والمرقبة العليا، ص ٧١، ٧٢.

ورائه، خصوصاً والأندلس مهددة من أعدائها، وقَفَ وَاجِماً نَاكِسَ الرأس، ودموعه تَنْحدر على لحيته، وقال:

«والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قِيَادِك هذا التمكن، مع ما أتاك الله وفضَّلك على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين».

فاقْشَعَرَّ عبد الرحمن من قوله، وقال:

«انظر ما تقول؟ وكيف أنزلني منازلهم؟».

قال القاضي:

«نعم، أليس الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] ».

فوجم الخليفة عبد الرحمن ونكس رأسه ملياً وعيونه تدمع خشوعاً وندماً، ثم قال:

«جزاك الله تعالى يا قاضي خيراً عنا وعن المسلمين والدِّين، وكثَّر في الناس أمثالك، فالذي قلت والله الحق».

وأمر بنقض سقف القبَّة، وأعاد قرمدها تراباً.

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٣٣، ٣٤.

المبحث الثاني
تـلاميذه ومؤلفـاته

أولاً: تـلاميـذه:

لقد كان منذر رحمه الله يولي عملية التدريس والتكوين العلمي عناية خاصة، ويبذل قصارى جهده في إعداد طلبة العلم المجدين باعتبارهم سبب الاستمرار، والعامل الأساسي في إيصال ذخائر السلف إلى من بعدهم، ولم يكن رحمه الله يدخر وُسْعاً في تنفيذ هذه المهمة العليا، رغم كثرة المشغلات من أمور القضاء والحكم.

وقد كانت علاقة منذر بطلبته وتلاميذه نموذجاً يحتذى في الود والعطف والتراحم، لا يسلك في منهجيته التعليمية سُبُل التعنيف ولا يغالي في الشدة والصرامة، بل يأخذ طلابه بالرفق من غير أن يفضي ذلك إلى انسياب، وكان يروِّح عنهم رحمه الله بطُرف ونوادر تجلو الصدأ وتجدد القريحة وتبعث على قوة الانتباه.

قال الزبيدي: «وكان ذا منظر نبيل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط إليهم، وإقبال عليهم، وكانت فيه دعابة حسنة»[1].

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

ولا شك أن هذا الخلق السامي قد جعل من منذر قبلة لعدد من طلاب العلم النبهاء الذين وجدوا فيه ما ينشدونه ويؤملونه من عمق في التحليل، وسعة في الاطلاع وحضور للبديهة، واهتمام بالأدلة وبُعد عن التقليد، ومقدرة عالية على توضيح المسائل وإيصالها بأيسر طريق إلى الأذهان.

ومن أبرز الطلاب الذين نبغوا على يديه وأفادوا من علمه هذه الثلة التي أفردت لها كتب فهارس العلماء تراجم خاصة:

١ ـ الحكم بن منذر بن سعيد المكنى بأبـي العاصي:

هو ولد القاضي منذر وبه كان يكنى، وقد روى الحكم عن أبيه وعن أبـي علي، ورحل إلى المشرق، وكان من أهل المعرفة والذكاء، متَّقِدَ الذهن، طوداً في الأدب لا يجارى، روى عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره، توفي في مدينة سالم نحو سنة عشرين وأربع مائة[١].

٢ ـ سعيد بن منذر بن سعيد كنيته أبو عثمان:

وهو من ولد القاضي أيضاً عاش في قرطبة، أخذ عن أبيه فصار خطيباً سليقاً ذكياً نبيهاً، مات مقتولاً رحمه الله يوم دخول البرابر على قرطبة سنة ثلاث وأربعمائة[٢].

٣ ـ عبد الملك بن منذر بن سعيد المكنى بأبـي مروان:

وهو الثالث من أبناء منذر، سمع من أبيه ومن غيره، وتولى خطة

---

(١) الصلة ١/١٤٦.

(٢) الصلة ١/٢٠٨، وطوق الحمامة، ص ٧٢.

الرد في عهد الحكم، ولما تغلب الحاجب المنصور بن أبـي عامر بالحكم اتهمه مع زمرة من الفقهاء والقضاة بأنهم يبايعون سرًّا لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن الخليفة الناصر، فصلبه وبدد شمل جميع من اتهم[1].

٤ ــ أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن محمد التميمي التاهَرْتي البزاز:

وُلد بتاهرت[2] سنة تسع وثلاثمائة، ودخل إلى الأندلس صغيراً، وروى عـن جـم غفير من علمائها، وكان ثقة فاضلاً اختص بمنذر بن سعيد وسمع منه تواليفه كلها، روى عنه أبو عمر يوسف بن عبد البر، وأبو الوليد ابن الفرضي، وتوفي رحمه الله بقرطبة سنة ست وتسعين وثلاثمائة[3].

٥ ــ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهني البزاز كنيته أبو محمد:

من أهل قرطبة، سمع بها عن قلة من علمائها في مقدمتهم القاضي منذر بن سعيد وقاسم بن أصبغ، ثم رحل إلى المشرق فسمع من أبـي علي ابن السكن، وابن حراب، فصار من فقهاء الأندلس ومحدثيها، وإليه يرجع الفضل في دخول سنن النسائي إلى الأندلس، توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة[4].

(١) تاريخ العلماء لابن الفرضي ١/ ٣١٧، طوق الحمامة لابن حزم، ص ٧٢.

(٢) منطقة تقع بالجزائر حالياً.

(٣) الجذوة، ص ١٣٢، وبغية الملتمس، ص ٢٠١.

(٤) تاريخ العلماء ١/ ٢٨٩، وجذوة المقتبس، ص ٢٣٤.

٦ ـ عبد الوارث بن سفيان بن جبرون[١] بن سليمان أبو القاسم يعرف بالحبيب:

أخذ العلم عن قاسم بن أصبغ، وكان مختصاً به، وروى عن القاضي منذر، ومن روايته عنه كتاب «أحكام القرآن»، كان عالماً فاضلاً دقيقاً صالحاً عفيفاً، روى عنه ابن عبد البر وأبو عمران الفاسي وغيرهما، توفي رحمه الله سنة خمس وتسعين وثلاثمائة[٢].

٧ ـ محمد بن يحيى بن مالك المكنى بأبي بكر:

من أهل طرطوشة، دخل قرطبة وتأدب بها، فسمع من القاضي منذر، وقاسم بن أصبغ الهمداني، وأبي علي القالي، وكان حافظاً للنحو واللغة والشعر، يفوت من جاراه على حَدَاثة سِنِّهِ، رحل إلى المشرق مع أبيه، فسمع عن كثير من علماء الشرق، واستوطن أصبهان إلى أن توفي بها مُغْتبطاً[٣] عند الستين وثلاثمائة[٤].

٨ ـ أحمد بن محمد بن أحمد أبو عمر المعروف بابن الجسور الأموي:

عالم من علماء الأندلس، ومحدث مكثر، أخذ عن القاضي منذر، روى عنه ولازمه حتى اتخذه القاضي كاتباً له ومُخْلفه على السوق، وكان رحمه الله خيِّراً فاضلاً أديباً شاعراً، توفي سنة إحدى وأربعمائة[٥].

---

(١) هكذا في بغية الملتمس والصلة (جبرون) بالمعجمة التحتية. وفي جذوة المقتبس سقطت النقطة سهواً.

(٢) الجذوة، ص ٢٧٦، ٢٧٧، والصلة ١/ ٣٦٤.

(٣) أي شاباً صحيحاً.

(٤) التكملة ١/ ٢٩٥، ونفح الطيب ٢/ ١٥١.

(٥) الجذوة، ص ٩٩، ١٠٠، والصلة ١/ ٢٩.

ثانياً: مؤلفاته[1]:

خلَّف القاضي منذر رحمه الله ميراثاً علمياً هامًّا يتضمن مجموعة من المؤلفات والرسائل القيمة الموزعة على عدة علوم، من تفسير وفقه وعقيدة ولغة وغيرها.

قال الزبيدي: «وكان ذا علم بالقرآن وله فيه كتب مفيدة»[2].

وقد لقيت هذه المؤلفات قَبولاً واسعاً، وطارت بها الركبان شرقاً وغرباً، فأفاد منها الحفاظ، ووقفتُ في كتبهم على نقول عدة منها مع إعجابهم الشديد بطول باع منذر في التأليف وحسن التصنيف، فكانت هذه المصنفات بحق إضافة متميزة لإثراء المكتبة الإسلامية.

قال الذهبي: «كان فقيهاً فصيحاً، وكان أعلم الناس باختلاف العلماء.. وله تصانيف حسان جدًّا»[3].

كما كان رحمه الله جيد القلم جميل الأسلوب حسن العبارة، من قرأ كتبه وجد لها حلاوة فلا يعترضه ملل ولا يعتريه كدر.

يقول ابن كثير: «وله مصنف مفرد له وقع في النفوس وعليه حلاوة وطلاوة»[4]، وكان من عناية العلماء بمصنفات منذر أن رووها عنه

---

(١) انظر: طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥، وتاريخ العلماء، ص ١٣٤، جذوة المقتبس، ص ٣٢٦، وبغية الملتمس، ص ١٦٦، وفهرسة ابن خير، ص ٥٤، ونفح الطيب ٢/ ٢٢، ٣/ ١٦٩، والبداية والنهاية ١١/ ٣٤٧، والمعجم المفهرس لابن حجر، ص ٣٩٢٠، وهدية العارفين، ص ٤٧٢.

(٢) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

(٣) السير للذهبي ١٦/ ١٧٤، ١٧٥.

(٤) البداية والنهاية ١١/ ٣٤٧.

بالإسناد المتصل، كرواية الحافظ ابن حجر[1]، ورواية أبـي بكر بن خير الإشبيلي[2].

قال ابن الفرضي: «وله كتب مشهورة كثيرة مؤلفة في القرآن، والفقه، والرد، أخذها الناس عنه وقرؤوها عليه»[3].

وسوف أورد الآن ذكر أسماء هذه المؤلفات حسب ما دُوِّن في المصادر؛ لأنه وللأسف الشديد على حد اطلاعي لم يعثر على شيء منها لحد الآن، إما لتعرضها لغوائل الدهر وصروف الزمان، أو لكونها ما زالت حبيسة أدراج الخزائن التي توارت عن الباحثين نفائسُها لسبب من الأسباب، ولعل الله يقيض لها من ينتشلها من غياهب الهجران وظُلَم النسيان. وإني لآمل أن تكشف لنا الأيام القادمة شيئاً من ذخائر هذا الإمام خصوصاً وأنه قد كُتب لها الانتشار حتى وصلت إلى المشرق، ووقعت بين يدي أعلام كبار متأخرين أفادوا منها وأوردوا نقولاً عنها كابن القيم، وأبـي الفداء إسماعيل بن كثير وغيرهما، أما في المغرب فقد كثر النقل عنها في مؤلفات عدة كتفسير ابن عطية، وجامع القرطبـي وغيرهما، والآن أورد عناوين تلك المصنفات ومظنة مجالها:

أولاً: كتاب أحكام القرآن.

ثانياً: كتاب الناسخ والمنسوخ.

وكلا الكتابين في تفسير القرآن وعلومه على ما ذكره الزبيدي كما أن

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لابن حجر، ص ٣٩٢.

(٢) انظر: فهرسة ابن خير، ص ٥٤.

(٣) تاريخ العلماء ٢/١٤٣.

ذلك ظاهر من عنوانيهما، ومنذر يعد بذلك من أوائل من ألف من الأندلسيين في أحكام القرآن، وقد واصل التأليف في هذا المجال عدة أعلام من بعده أفادوا من مُصنَّفِه.

ثالثاً: الإبانة عن حقائق أصول الديانة: ويظهر أنه من مؤلفات منذر رحمه الله التي اختصت ببيان أصول العقيدة الإسلامية، وما ينبغي للمسلم اعتقاده في حق الله سبحانه وتعالى، ولا شك أنه كتاب في غاية النفاسة، ولو وقع بين أيدينا لفتحت لنا مغاليق كثير من القضايا التي أثيرت حول معتقده، كما يكشف لنا عن المسائل العقدية التي كثر النقاش حولها آنذاك وآراء أبرز العلماء الذين عاصرهم منذر فيها وموقفه من تلك الآراء.

رابعاً: الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله: ويبدو من عنوانه أنه من مصنفات منذر الفقهية والأصولية، قال الزبيدي: وله مؤلفات في الفقه[١].

والكتاب وَاضِحٌ أَنَّهُ يولي الدليل القرآني أهمية كبرى عن طريق ربط الفروع الفقهية بأدلتها من القرآن، وبيان سُبُل استنباط الأحكام منه، وتقرير القواعد الأصولية الضابطة لذلك، كما تتجلى لنا من طبيعة الكتاب نَفْسِيَة منذر الطموحة للتأصيل المبغضة للتقليد، ولا شك أن وضع مثل هذه الكتب يُعَدُّ محمدة ومنقبة لمنذر في وقت اشتدت العناية بحفظ التفريعات والاكتفاء في معرفة حكمها بأقوال الرجال دون اهتمام بالدليل، وكأن منذراً بذاك يدعو فقهاء عصره إلى تجديد الصلة مع الكتاب والسنَّة بالرجوع إليهما في الحكم والفتيا، وهذه ميزة لعلماء الظاهرية بالأندلس.

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

خامساً: **مصنف الغريب**، ذكره الزبيدي في طبقاته[1] ولم يبين موضوع الكتاب أو من أي فن هو، ولكن بالتأمل في عنوان الكتاب بدا لي والله أعلم أنه من مؤلفات منذر في اللغة، سماه بالغريب نسجاً على منوال الغريب المصنف لأبـي عبيد القاسم بن سلام، أو في غريب الحديث على غرار الغريب المصنف لأبـي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني الذي تيسَّر لمنذر الاطلاع على أحدهما حينما بعث إلى أبـي علي البغدادي كي يستعيره منه قائلاً: [المجتث]

بحـق ريـم مهفهـف وصـدغـه المتعطـف

ابعـث إلـي بجـزء من الغريب المصنف

فقضى أبو علي طلبه رحمهم الله أجمعين.

سادساً: ذكر ابن كثير رحمه الله أن لمنذر مصنفاً تحدث فيه على أن الجنة التي أُدخلها آدم وسكنها وأنزل منها كانت في الأرض، وليست الجنة التي أعد الله لعباده في الآخرة، وقال بأن لهذا الكتاب وقع في النفوس وعليه حلاوة وطلاوة[2].

سابعاً: وذكر ابن القيم في الصواعق المرسلة أن منذر بن سعيد كان ممن يقول بنفي المجاز في القرآن وأن له في ذلك كتاباً[3].

وأورد صاحب هدية العارفين أن من مصنفات منذر بن سعيد كتاباً سمَّاه: الرد على أهل المذاهب[4]، وهو وهم منه؛ لأن ما ذكرته المصادر

---

(١) نفسه.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٧.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن الموصلي، ص ٣٧٣.

(٤) انظر: هدية العارفين، ص ٤٧٢.

الأصلية أن له مؤلفات في الرد على أهل المذاهب[1]، ولا يفيد ذلك أن له مصنفاً بعينه يحمل ذلك العنوان، وإنما هي كتب متعددة في موضوع واحد، والله أعلم.

ومن الكتب التي نسبت إلى منذر بن سعيد كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية بعنوان: **التبيين على مثال اليقين**[2]، وهو يتكون من ٥٩ صحيفة مكتوب بخط مشرقي لا بأس به، وبعد التأمل والنظر ظهر أنه لا صلة له بالقاضي منذر وأنه مُلَفَّق إليه وذلك للاعتبارات والقرائن الآتية:

١ ــ لم يرد عنوان الكتاب واضحاً ومنضبطاً على طرة المخطوط، بل ورد مضطرباً إذ جاء كالآتي: «كتاب التلقين ألفه» ثم كتب تحته «لا بل كتاب التبيين على مثال اليقين» تأليف منذر بن سعد (كذا وهو خطأ والصواب سعيد) القاضي بقرطبة رحمه الله تعالى ونفع به آمين.

٢ ــ لم يرد ذكر اسم هذا الكتاب ضمن مصنفات منذر في مصادر ترجمته، وإن كانت هذه المصادر لم تستوعب ذكر مصنفاته، إلاَّ أن عدم ذكره ضمنها قرينة تؤيد ما نحن بصدده من نفي نسبة هذا الكتاب إليه كما سيتضح فيما يأتي.

---

(١) انظر: طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥، وتاريخ العلماء، ص ١٤٣.

(٢) موجود بمكتبة طلعت دار الكتب المصرية داخل مجموع رقم ٧٧٦، وقد أنبأني به الباحث الحصيف الأستاذ عبد العزيز الساوري، فسررت بهذا الخبر لما كان يغلب على ظننا من ضياع مصنفات منذر جميعها، وما إن تلقفت الخبر حتى سعيت جاهداً في بلوغ المطلوب، وكان من فضل الله علينا أن وجد لنا صديق هندي هو الأخ الفاضل محمد عزيز الندوي يدرس بالقاهرة فاستنفرته للأمر، فبذل جزاه الله خيراً جهوداً مضنية حتى تمكن من تصويره وبعثه إلي.

٣ ــ ومن القوادح في نسبة هذا الكتاب لمنذر مقارنة أسلوبه من خلال ما وصلنا عنه من نصوص نقلتها عنه مصادر ترجمته مع أسلوب هذا الكتاب، إذ الفرق بينهما واضح، مما يؤكد أن هذا الكتاب ليس من إنشائه.

٤ ــ من خلال النظر في طريقة المؤلف في كتابه هذا يتبين أنه من المتأخرين عن عصر منذر، فأسلوبه وطريقة عرضه للأفكار والمعلومات وسياقه للأحاديث لا تُشابه طريقة المتقدمين ممن ألف وصنف في عصر منذر، وكذلك بعد عصره بمدة، فالذي يبدو والله أعلم أن هذا التأليف ينتمي إلى ما بعد القرن الثامن.

٥ ــ نقل المؤلف في الصحيفة ١٤ عن أبي الحسن القابسي، وكذلك في الصحيفة نفسها عن أبي حامد الغزالي في كتابه «كشف علوم الآخرة»، ومعلوم تأخر القابسي المتوفى (سنة ٤٠٣هـ)، والغزالي المتوفى (سنة ٥٠٥هـ) عن منذر بسنين طويلة.

فكيف يعقل أن ينقل عنهما في كتابه هذا؟ ويكفي هذا دليلاً قاطعاً في نفي نسبة الكتاب لمنذر.

وإذا تبين هذا فإنني رجعت إلى الكتب المعنية بذكر أسماء المؤلفات لتعيين صاحب الكتاب لكن لم أظفر منها بشيء، والذي يبدو لي والله أعلم أن مؤلفه ليس من العلماء المشهورين، وأراد لِمُصَنَّفِهِ هذا أن ينتشر لا سيما وهو في موضوع التذكير بالموت والآخرة، فنسبه لمنذر الذي يعتبر رأساً في الوعظ، وإماماً في الخطابة، كي يقبل الناس على كتابه.

قال أبو ... الظاهري: جاء التصريح بنسبة كتاب التبيين إلى القاضي منذر رحمه الله في تاريخ دمشق لابن عساكر (طبعة دار الكتب العلمية، ج٣٣، ص٤٣٧) في ترجمة موسى أبو هارون التجيبي لا (ليس البلوطي)، مما يجعل للبحث مجالاً ودراسة المخطوطة وتحقيق نسبتها ... ص١٠!

❑ ❑ ❑

المبحث الثالث
مكانته العلمية

يُعد القاضي منذر من العلماء الذين امتازوا بصفات علمية ومؤهلات معرفية متعددة، جعلت منه شخصية علمية متكاملة، جمعت بين الرسوخ في علوم الشريعة والاطلاع الواسع على علوم الأدب واللغة.

وقد حاولت أن أجمع هذه الصفات التي امتدح بها القاضي، والتي تفرقت في أثناء كتب التراجم والتاريخ، وظهرت جلية في كتاباته وأقواله ومآثره، فوجدتها دالة على تمام إجادته وشدَّة تمكنه.

أولاً: التبحر في عدة علوم:

الناظر في مرتبة هذا القاضي العلمية يجده من ذلك الرعيل الأول من الأئمة الأفذاذ الذين غاصوا في بحر العلم وسبروا أغواره ولم يكونوا مقتصرين على فن أو فنين، بل كانت لهم مشاركة في كل علم، واطلاع على كل فن، حتى صاروا موسوعات علمية.

ومكانة منذر ومصنفاته دالة على أنه من كبار علماء الأمة الموسوعيين، فقد جاءت كتبه مساهمة في عدد من صنوف العلم ومشاربه، مما يدل على سعة معارفه وكثرة اطلاعه، فما تكلم في فن من الفنون إلاَّ

وَخُيِّل إليك أنه لا يتقن سواه، ولذلك نجد النقول عنه في كتب العقيدة والتفسير والفقه والأصول والقضاء واللغة.

وقد أثنى عليه المترجمون له بهذه الموسوعية المعرفية، قال الزبيدي: «وكان ـ القاضي منذر ـ متفنِّناً في ضروب العلوم، وكان ذا علم بالقرآن حافظاً لما قالت العلماء في تفسيره وأحكامه ووجوهه في حلاله وحرامه، حاضر الشاهد بآياته، له فيه كتب مفيدة، وكان ذا علم بالجدل حاذقاً فيه شديد العارضة حاضر الجواب ثابت الحجة»[(١)].

وقال عنه الحميدي: «وكان عالماً فقيهاً وأديباً بليغاً»[(٢)].

وقال فيه ابن خاقان: «وكان غزير العلم، كثير الأدب، وله كتب مؤلفة في السنَّة والقرآن والورع، والرد على أهل الأهواء والبدع، وكان خطيباً بليغاً، وشاعراً محسناً»[(٣)].

وتحدث عنه الفيروزآبادي وقال: «.. النحوي اللغوي الإمام فيهما»[(٤)].

ثانياً: قوة الفطنة وحدَّة الذكاء:

إن من نافلة القول الحديث عَمَّا كان يتمتع به القاضي منذر من ذكاء وقَّاد وفطنة حادَّة مَكَّناه من أن يسبر أغوار العلم ويَتَفَنَّن في ضروبه، حتى انتهت إليه الزعامة العلمية بعد اختياره لمنصب قضاء الجماعة بقرطبة.

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) جذوة المقتبس، ص ١٢٦.

(٣) مطمح، ص ٢٣٨.

(٤) البلغة، ص ٢٢٦.

وإسناد مثل هذا المنصب لمنذر إنما جاء نتيجة لذلك، خصوصاً وأنهما شرطان أساسيان في القاضي، فكيف بمنصب قاضي القضاة؟

قال الذهبي: «وكان ــ منذر ــ فطناً مناظراً ذكيًّا بليغاً مفوّهاً»[1].

ثالثاً: المداومة على القراءة والمطالعة:

كان منذر رحمه الله كثير النظر والتصفح للكتب، لا يكاد يفتر عن مطالعتها، وبَقْرِ كنوزها، فقد كانت شغله وهمه بحيث لا يستطيع مفارقتها والاستغناء بغيرها عنها، ورغم انشغاله رحمه الله بالقضاء وأموره وما يتطلبه من حضور وتفرغ شبه دائم إلاَّ أنه لم يكن ليحجره عن معانقة الكتب وقراءتها، فيروى[2] أنه لما تولى قضاء الثغور الشرقية والإشراف عليها، كان رحمه الله كلما وجد فسحة من فراغ انطلق إلى بيت والد الفقيه أبي عبيد القاسم الجبيري ينظر في كتبه ويتفحصها ويعلّق عليها.

وكان رحمه الله يبذل قصارى جهده في الحصول على الكتب والاستفادة بما فيها، فإذا نمى إلى علمه وجود كتاب عند أحد لم يطلع عليه سارع رحمه الله إلى طلبه منه وألح في ذلك، فمن ذلك ما كتبه[3] إلى أبي علي القالي رحمه الله يستعير منه جزءاً من الغريب لما علم بوجوده عنده قائلاً: [المجتث]

بحَقِّ رِيمٍ مُهَفْهَفْ ... وَصُدْغِهِ الْمُتَعَطِّفْ
ابْعَثْ إلَيَّ بجُزْء ... مِنَ الْغَرِيبِ الْمُصَنَّفْ

---

(١) العبر ٢/ ٩٦.

(٢) انظر: التكملة لكتاب الصلة ١/ ٢٣٩.

(٣) نفح الطيب ٢/ ٢٠، ومعجم الأدباء ٥/ ٥٢٧.

فأجابه : [المجتث]

وَحَقِّ دُرٍّ تَأَلَّفْ ... بِفِيكَ أي تَأَلُّفْ
لأَبْعَثَنَّ بما قد ... حَوَى الْغَرِيبُ المصنف
ولو بعثت بنفسي ... إليك ما كنت أسرف

رابعاً : الحس النقدي والشجاعة في إبداء الرأي :

عملية النقد ليست عملية سهلة لما تتطلبه من مقدرة عالية من الإحاطة بمضامين الكلام ودلالاته المختلفة، مع سعة العلم والمعرفة وحدة الذكاء وتوقد الفطنة، وطول الدربة، وفقيهنا منذر لم يكن ينقصه شيء من ذلك، بل ومنذ بداية مسيرته العلمية في مرحلة الطلب ظهرت عليه أمارات الذوق العالي، حيث كان رحمه الله شديد الإمعان والتدبر فيما يأخذه من علوم ومعارف، فَيُمحص بعقله وبصيرته ما يتلقاه حتى يتبين له الغث من السمين، والصواب من الخطأ، ولم يكن منطلقه رحمه الله في ذلك الفراغ والتعالم كما هو حال الكثيرين، وإنما كان ذلك نابع من قلب امتلأ علماً، وعقلاً صقلته التجارب وكثرة الاطلاعات فازداد توقداً.

وقد وقف العلماء من بعده على هذه السمة التي ظهرت بارزة على جل مصنفاته التي لا تكاد تخلوا من الردود على أهل المذاهب ومحاجتهم بقوة وحزم يصلان إلى حد التقليل من فهم المخالف والازدراء برأيه، ومن ثم يتضح لنا أبعاد قول الزبيدي فيه بأنه: كان ذا علم بالجدل حاذقاً فيه شديد العارضة، حاضر الجواب ثابت الحجة[(١)]، ومما يدل على تلك العقلية النقدية التي كان يتمتع بها منذر رحمه الله منذ فترة مبكرة من عمره قصته مع أبي جعفر النحاس المتقدمة عند الحديث عن رحلته.

---

(١) طبقات النحويين للزبيدي، ص ٢٩٥.

خامساً: محاربته الجمود والتقليد:

حري بمن كانت تلك أوصافه العلمية أن يكون أشد الناس عداءً لمن دفنوا عقولهم ووأدوا فكرهم تحت صخور التقليد وغياهب الجمود، يلهثون وراء قول فلان وقول علان فلا يتجاوزونه، ولا يقدمون بين يديه أو يؤخرون، فالحق ما قاله، والباطل ما خالفه، ولا حاجة بهم إلى دليل، أو حجة، أو برهان، فهم يعيشون على فتات غيرهم قصرت بهم هممهم عن إدراك الحقائق في مظانها لما لحقها من ضعف وخور، ولسان حالهم يقول: ما ترك الأول للآخر!

وقاضينا رحمه الله قُدِّر له أن يلاقي في الأندلس فئة من هؤلاء المقلدين تقليداً أعمى للإمام مالك رحمه الله، فكانت له معهم معارك أسِنَّتها الكلمة والحجة الدامغة.

يقول منذر رحمه الله[1] واصفاً سخافاتهم: [الطويل]

عَذيري من قوم يقولون كُلَّمَا ... طلَبت دليلاً هكذا قال مالكُ
وإن عُدْتُ قالوا هكذا قال أَشْهَب ... وقد كان لا يَخْفَى عليه الْمَسَالِكُ
فإن زدت قالوا: قال سُحْنُون مِثْلَه ... ومن لم يقل ما قال فهو آفِكُ
فإن قلت: قال الله ضَجُّوا وأكثروا ... وقالوا جميعاً: أنت قِرْن مُمَاحِكُ
وإن قلت: قد قال الرسول فَقَولُهم ... أتت مالكاً في تَرْكِ ذَاكَ الْمَسَالِكُ[2]

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١١٣٨/٢، والروض المعطار، ص ٩٦ مع بعض التغيير.

(٢) جاء هذا الشطر في صدر الكتاب هكذا: «ائت مالكاً في ترك ذاك المالك»، والصواب ما جاء في النسخة «ط» وأثبتناه لسلامة الوزن وصحة المعنى.

وقال[1] رحمه الله أيضاً ساخراً من حمقهم وعمى بصيرتهم: [الرجز]

انْعَـقْ بمـا شِئْـتَ تَجِـدْ أنصـاراً وَزُمَّ أسْفـار تجـد حِمَـارا[2]

يحمـل مـا وَضَعْـتَ مـنْ أَسْفَـارِ مَثَلُـه كَمَثَـلِ الحِمَـار

يحمِـلُ أَسْفَـاراً لـه وَمَـا دَرَى إنْ كَانَ ما[3] فيها صَوَاباً أَوْ خَطَا

إِنْ سُئِلُوا قالوا: كذا رَوَيْنا ما إن كَذَبْنَا لا ولا اعْتَدَيْنا

أَوْجَهُهُـمْ مَـنْ قَـالَ ذِي رِوَايـة ليـس بمعْنَـاهـا لـه دِرَايَـة

كَبِيـرُهُـم يَصْغُـر عند الْحَفْـل لأنـه قَلَّـدَ أهْـل الجَهْـل

سادساً: قوة العبارة وجزالة الأسلوب:

كان منذر رحمه الله يتمتع بمقدرة عالية في صناعة الكلام والاسترسال فيه بأسلوب فصيح وعبارات غاية في البلاغة والجودة، كأنه يغرف من بحر لا ينضب، فتخرج كلماته أبلغ ما تكون في مقامها، لا يَعْتَرِيه قُصور ولا يعترضه عَيٌّ أو فَهَاهَة.

فقد نَعَتَه غير واحد بالإجادة والفصاحة وعُمْق التأثير، حتى قال أمير المؤمنين الحكم: إنه لم يسمع بالأندلس أخطب منه[4]، ونفس العبارة نجدها عند ابن بشكوال أيضاً يقول: «منذر بن سعيد خطيب بليغ مصقع لم يكن بالأندلس أخطب منه»[5]، كما تميزت خطبه بالاستفتاحات العجيبة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٠٣٢.

(٢) زم أسفاراً: أي شدها بما تشد به.

(٣) سقطت من المطبوع، والصواب إثباتها حتى يستقيم الوزن.

(٤) انظر: السير للذهبي ١٦/ ١٧٤.

(٥) المصدر السابق ١٦/ ١٧٤.

والمقدمات المثيرة التي تأسر العقول وتهز القلوب، وقد تقدم لنا طرف من ذلك.

ومؤلفات منذر لا تقل أهمية في جمال الأسلوب وقوة العبارة. يقول ابن كثير واصفاً أحد كتبه: «وله مصنف مفرد، له وقع في النفوس وعليه حلاوة وطلاوة»[١]. كما كان رحمه الله مجيداً للشعر له فيه قصائد نفيسة وأشعار مطبوعة، تدل على طول باعه في الشعر والأدب، قال فيه ابن خاقان: «وكان كثير الأدب... وشاعراً محسناً»[٢].

وقال ابن كثير: «كان إماماً عالماً فصيحاً فطناً شاعراً أديباً»[٣].

وسأذكر هنا طرفاً من شعره يبرز مكانته الشعرية:

استشكل على قوم تكنية منذر لرجل كان يَسبُّه، علماً بأن التكنية إنما تكون في مقام المدح، فقال معللاً ذلك ببيتين رائعين[٤]: [الرجز]

لا تعجبوا مِنْ أنَّني كَنَّيْتَه ... مِنْ بعد ما قَدْ سَبَّنَا وآذَانَا
فاللَّه قد كَنَّى أبا لهب وَمَا ... كَنَّاهُ إلاَّ خِزْيَةً وهَوَانَا

ومما ينبغي علمه أن ذكر الله تعالى أبا لهب بكنيته ليست تعظيماً له، وإنما لكونه اشتهر بالكنية دون الاسم، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من عَلَمَيْه، أو لأن اسمه عبد العزى فعدل عنه

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٤٧.
(٢) مطمح، ص ١٣٨.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ٣٤٧.
(٤) مطمح، ص ٢٤٩، منح المنية في شرح الكنية للمكي بن محمد بن علي، مخطوط بالخزانة العامة برقم ٢٩٥١ د، ص ٤٣.

إلى كنيته، وقيل: لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته، فكان جديراً بأن يذكر بها ويقال أبو لهب[1].

وقال رحمه الله مذكراً بالموت وما يكون من شأنه في مباغتة الأحياء، وأن ذلك يستدعي مداومة الإعداد ليوم المعاد، وعدم الإغراق في ملذات الدنيا والاكتفاء منها بالكفاف، مع الدعوة إلى مجانبة رفقاء السوء الذين همهم في حقدك وأمنيتهم في زوال نعمتك، وغايتهم المسارعة إلى كشف مساوئك وإشاعتها[2]: [البسيط]

الموت حوض وكلنا نردْ ... لم ينج مما يخافه أحدْ
فلا تكن مُغْرَماً برزقِ غدْ ... فلست تدري بما يجيء غدْ
وخُذْ من الدهْر ما أتاك به ... ويَسْلم الرُّوحُ منك والجسدْ
والخير والشر لا تُذِعْه فما ... في الناس إلاّ التَّشْنِيعُ والحسد

وقال أيضاً واعظاً الناصر لما افتتن ببناء الزهراء بهذين البيتين الممزوجين بعاطفة دعوية صادقة، وحكمة مؤثرة[3]: [السريع]

يا بانيَ الزهراء مستغرقا ... أوقاته فيها أَمَا تَمْهَلُ
للّٰه ما أَحْسَنَها رَوْنَقاً ... لَوْ لَمْ تكُن زهْرَتُهَا تَذْبُلُ

❑ ❑ ❑

---

(١) وهذا تعليق للمكي بن محمد في المنية على بيتَي منذر، ونظراً لما فيه من فوائد أوردته.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٧٤.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٧٦، قال المقَّري معلقاً: ولقد صدق منذر رحمه الله تعالى فيما قال، فإنها ذبلت بعد ذلك في الفتنة وقلب ما كان فيها من منحة ومحنة.

الفصل الثالث

القاضي منذر، أخلاقه، وثناء الناس عليه

مدخل:

إن الصفات الخلقية والسيرة العملية بين الناس هي المحك الذي يتجلى من خلاله صدق الإيمان وعمقه، وصلاح الطوية والسريرة، ومن ثم كثر حثُّ الشارع على تزكية النفس وتهذيبها بفعل الصالحات وعدم إيرادها المهالك أو ما يشينها من الأقوال والأفعال، حتى ينعكس ما يجيش به الباطن سلوكاً قويماً في الظاهر.

ولقد كان القاضي منذر رحمه الله عالماً فاضلاً تقيًّا ورعاً جامعاً لمكارم الأخلاق وجميل الصفات، سائراً في الناس بسير الصالحين، زاهداً في الدنيا، ليِّن الجانب متواضعاً، قويًّا على إقامة الحق جريئاً في إثباته، فبجَّله الناس وأشادوا بفضله، وأثنوا عليه ثناءً حسناً.

* * *

المبحث الأول
صـفـاتـه الخـلـقـيـة

إن الكريم سبحانه أسبغ على القاضي منذر من فضائل الأخلاق وكريم الصفات الشيء الكثير، مما جعل من قاضينا إمام علمٍ وعمل، شأنه في ذلك شأن الدعاة المصلحين الذين تجاوز حسن سلوكهم وجميل مزاياهم الشقشقة بالكلمات وتنميق العبارات، فكانوا مصابيح من نور بهم يُهتدى إذا اشتدت الخطوب وادلهمَّت السبل.

* **تقواه وورعه:**

عَرَّف الجرجاني التقوى بأنها: «الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهي صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك»[(١)].

وعـرَّف الـورع بـأنـه: «اجتنـاب الشبهـات خـوفـاً مـن الـوقـوع فـي المحرمات»[(٢)].

والتقوى والورع من الصفات الحميدة والأخلاق العالية التي يحسن بالمسلم أن يتصف بها، فهي وصية الله سبحانه للسابقين واللاحقين، قال

---

(١) التعريفات للجرجاني، ص ٩٠.

(٢) التعريفات، ص ٣٢٤.

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1].

وهاتان الصفتان تعتبران علامة صدق إيمان الفرد وصلاحه، لذا كانت أهميتهما والتحلي بهما آكد في حق العلماء والمصلحين باعتبارهم القدوة الحسنة والأسوة الخيرة لعامة الناس.

وقد أطبق كل المتحدثين عن منذر بن سعيد من معاصريه وتلاميذه والذين جاءوا من بعدهم على شدة تقوى منذر وورعه عن كل ما يخدش أمر دينه ومروءته، وقَّافاً عند حدود الله ومحارمه، لا يقدم شيئاً في أموره أو يؤخره إلَّا بعد معرفة حكم الله فيه، مجتنباً الشبهات في أعماله وتصرفاته وفي منصبه ومواقفه، وفي كسبه ورزقه وإنفاقه، وفي عباداته ومعاملاته.

قال ابن بشكوال: «منذر بن سعيد لم يكن بالأندلس أخطب منه... مع اليقين في العلوم والدين والورع، وكثرة الصيام والتهجد»[2].

ومن صور تقواه وورعه أنه لما طلب منه الناصر أن يستسقي بالناس تأهب لذلك بصيام ثلاثة أيام إنابة وتنفلاً واستجداء ورهبة، كما تقدمت لنا نماذج رائعة وصور مشرقة عن عدله في قضائه وسهره ومكابدته في إقامة الحقوق وإيصالها إلى أصحابها، إضافةً إلى دفاعه المستميت عن حقوق الأمة ومصالحها، كل ذلك إنما يأتي من نفس بلغ التقوى منها مداه، والورع أقصاه.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣١.

(٢) السير للذهبي ١٦/ ١٧٤.

* زهـده:

الزهد: «بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك»[1].

كـان منـذر رحمـه الله مـن أزهـد النـاس فـي الـدنيـا، مجتهـداً فـي الانصراف عن لذاتها ومتاعها، يأخذ منها بقدر حاجته دون استرسال ولا مبالغة، رغم انبساطها له واعتلائه أرقى المناصب وأعلى الرتب، شهد له بذلك القاصي قبل الداني.

قال ابن كثير: «كان منذر كثير الفضل جامعاً لصنوف الخير والتقوى والزهد»[2].

ولم يقتصر رحمه الله على تربية نفسه بذلك، بل حاول جاهداً قدر مستطاعه محاربة كل أنواع الترف والاحتفال بالدنيا والاستغراق في ملذاتها التي بدأت تظهر في بلده الأندلس، وقد تقدم لنا الكلام عن وقائعه التي حدثت له مع الناصر، منها إنكاره عليه الإسراف في بناء الزهراء وغيرها.

ومن عيون شعره هذه القصيدة التي تنبض بمشاعر حزينة تحث على الزهد في هذه الدنيا خاصة، وأن أمارات المنون تجلَّت أمامه شاخصة، فيهز تلك النفس المغرورة هزًّا عنيفاً لعلها ترعوي أو تزدجر، وتُقبل على الله وتستعد ليوم تشخص فيه الأبصار: [المتقارب]

ثـلاثٌ وستـون قـد جُـزتهـا ... فمـاذا تُـؤمـل أو تَنتظِـرْ
وحـلَّ عليـك نـذيـر المشيـب ... فمـا تَـرْعَـوي أو فمـا تـزْدَجـر

(1) التعريفات للجرجاني، ص ١٥٣.

(2) البداية والنهاية ١١/ ٣٤٧.

تَمُــرُّ لَيَــالِيــكَ مَــرًّا حَثِيثــاً   وأنــت عَلَــى مَــا أَرَى مُسْتَمِــر
فلــو كنــت تَعْقــل مــا يَنْقَضــي   مــن الْعُمْــر لاعْتَضْــتَ خيــراً بشــر
فمــــا لـــــك لا تستعِـــــدُّ إذاً   لِـــدَارِ الْمَقَـــامِ وَدَارِ الْمَقَـــرْ
أتـــرغـــب عـــن فجْـــأة للمنــون   وتعلـــم أنْ ليـــس منهـــا مفــرْ
فـــإمـــا إلـــى جنـــة أُزلفـــت   وإمـــا إلـــى سَقَـــر تَسْتَعِـــرْ[١]

*** هيبتـه:**

إن المتتبع لحياة منذر وأخباره يطالعه من أول وهلة شخصية إمام مهيب وعالم متين صليب، حتى ليخيل للواقف أمامه أنه إزاء جبل شامخ مليء بكل ألوان الهيبة والوقار.

وقد كانت هيبة منذر رحمه الله تظهر عليه في دروسه وخطبه وفي اجتماعاته ومعاملاته ومجالسته لطلابه ومعاصريه.

قال عنه الخشني: «كان صليباً صارماً غير هيوب ولا جبان»[٢].

وقال القفطي: «وكان مهيباً في مجلس نظره، ولا حُفظ له جور في قضية ولا نُسب إلى غاية»[٣].

وكانت هذه الهيبة لا تقف عن حد فقد كانت سيفاً قاطعاً أمام كل من حاول الاجتراء على أحكام الله أو الخروج عن جادة الصواب أو التلاعب بمقدرات الأمة، حتى لو كان الحاكم الأعظم.

---

(١) مطمح الأنفس، ص ٢٤٩، وفي نفح الطيب ٣/ ٥٥٣، نسبت هذه الأبيات لأبـي الوليد بن حزم.
(٢) قضاة قرطبة، ص ١٧٥.
(٣) إنباه الرواة ٣/ ٣٢٥.

صفة أهَّلت منذراً رحمه الله ليكون قاضياً يبسط على الأندلس غطاء العدل والإنصاف، ويجعل من منصب القضاء مرجعاً أعلى في إيصال الحقوق إلى أهلها والضرب بشدة على المتسلِّطين والظالمين، وإقامة الحجة عليهم، حتى لو كلفه ذلك المخاطرة بنفسه.

قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: «حُدِّثت أن رجلاً وجد القاضي منذر بن سعيد رحمه الله في بعض الأسحار على دكان المسجد فعرفه، فجلس إليه، وقال: يا سيدي إنك لتغرر بخروجك وأنت أعظم الحكام، وفي الناس المحكوم عليه والرقيقُ الدين. فقال: يا أخي وأنَّى لي بمثل هذه المنزلة؟ وأنى لي بالشهادة؟ ما أخرج تعرضاً للغرر، بل أخرج متوكلاً على الله إذ أنا في ذمته. فاعلم أن قدره لا محيد عنه، ولا وزر دونه»(١).

* جرأته وشجاعته:

لقد كان منذر رحمه الله يتمتع بكل مواصفات العالم العامل، القائم على إصلاح أحوال الأمة وإحياء المعروف، ومحاربة المنكر والباطل، بكل ما أوتي من قوة، فلا يتوانى في إظهار الحق بكل جرأة وصلابة في خطبه ودروسه، ولقاءاته، وأحكامه، لا يخشى في الله لومة لائم.

ولم تكن جرأته رحمه الله تعصباً لنفسه وآرائه، وإنما دفاعاً عن الحق وإزهاقاً للباطل، كما لم تكن مقتصرة على ضعاف الناس أو على أحكام الشرع كما هو حال أنصاف العلماء، وإنما كانت جرأة منذر في مواطنها المطلوبة، لا يهاب في ذلك أحداً من الناس، ولو كان السلطان الأعظم،

---

(١) السير للذهبي ١٦/ ١٧٥.

عمدته في ذلك ثقة بالله وخوفاً منه وحده دون أن يكون له مطمع شخصي، ورغبة في المصالح الخاصة، أو خوف على نفسه وروحه.

وقد سبق لنا ضرب أمثلة عديدة ومواقف عظيمة منها تقدمه بين يدي الحفل المهيب الذي أقامه الناصر خطيباً من غير إعداد بعدما جبن عن ذلك المفوَّهون من خطباء الأندلس، إضافة إلى تقريعه للناصر حاكم الأندلس بكلام قاس وشديد لما تخلف عن صلاة الجمعة واشتغل بتشييد الزهراء.

كما أن كل مطلع على فتاويه وبعض أشعاره يتبين له من خلالها شخصية منذر رحمه الله الجريئة في الرد على كل مبتدع متعصب، أو مُتَفَيْقِهٍ متعالم.

قال عنه ابن خاقان: «وكان مهيباً صليباً صارماً غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم»[1].

وقال عنه ياقوت: «كان منذر بن سعيد شديداً في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت له مقامات بين يدي الخليفة الناصر يتناوله فيها بالعظات والزواجر غير هيَّاب ولا محتشم»[2]. وقال في موضع آخر: «وكان وقوراً صليباً في الحكم مُقْدِماً على إقامة العدل والحق وإزهاق الجور والباطل، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر»[3].

---

(١) مطمح، ص ٢٣٨.

(٢) معجم الأدباء ٥/ ٢٥٢.

(٣) المصدر السابق.

* تواضعه:

على الرغم من الهيبة والصلابة وشدة العارضة التي كانت تلازم منذراً رحمه الله، إلاَّ أنه كان أبعد الناس عن التكبر والإعجاب والزهو وإن علت مكانته وارتفع منصبه، فقد كان متواضع النفس مع نفسه ومع ربه ومع الناس جميعاً، ولا يتكلف لشيء في حياته ومعيشته وعلاقته مع الجميع.

ولما كان منذر خطيباً مصقعاً فإنه كان يخشى أشد الخشية أن يدخل عليه شيء من العُجب أو الكبر في هذا الجانب، فقد خطب يوماً خطبة عصماء وخاف على نفسه وعلى الناس أن ينزلوه فوق قدره فقال متواضعاً: «حتى متى أعظ ولا اتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل على الطريق المستدلين، وأبقى مقيماً مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[1]، اللّٰهم فرغني لما خلقتني له ولا تشغلني بما تكفلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك، يا أرحم الراحمين»[2].

ولئن كان التوضع سجية من سجاياه رحمه الله، فإنه أشد ما يكون تواضعاً واطّراحاً وخفضاً للجناح بين يدي طلبته وتلاميذه، حتى ليخيل إلى الناظر لحلقته أنه واحد منهم، فلا يترفع عليهم ولا يُعرض عنهم ولا يتضجر من أسئلتهم واستفساراتهم، أو يسخط على من أخطأ وزل منهم، دأبه في ذلك دأب العلماء الصالحين ورثة الأنبياء ونجوم الله في أرضه.

---

(١) سورة الأعراف: جزء من الآية ١٥٥.

(٢) نفح الطيب ٢/٢١.

قال الزبيدي واصفاً جلوسه لطلبته: «وكان ذا منظر نبيل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم، وكانت فيه دعابة حسنة»[1].

* دعابته ولطف أخلاقه وآدابه:

كان منذر رحمه الله معروفاً بالشدة، والجزالة، والحزم، إلاَّ أن ذلك لم يمنعه من السهولة، ولين الجانب، والخوض في الدعابة، والطُّرَف، والتندر بالفكاهة في أثواب أدبية قشيبة، يحكى[2] أنه كتب إليه بعض المتأدبين مستفتياً بقوله: [السريع]

مَسْـأَلَـة جِئْتُـك مستفْتِيـاً ... عَنْهـا وأنـت الْعَـالـم الْمُسْتَشَـار
عَـلَام تَحْمَـرُّ وجـوه الظِّبَـا ... وَأَوْجُـه الْعُشَّـاقِ فيهـا اصْفِـرار

فأجابه منذر على البديهة بهذين البيتين، وتأمل ما فيهما من إبداع لطيف:

احْمَـرَّ وجْـه الظَّبْـي إذ لَحْظـه ... سَيْـفٌ عَلَـى الْعُشـاق فيـه احْـوِرَارْ
واصفَـرَّ وجـه الصَّـبِّ لمـا نَـأَى ... والشَّمْسُ تُبْقِي لِلْمَغِيبِ اصْفِرَارْ[3]

وكتب[4] له بعض أهل المجانة والظرف مداعبين إياه وهو في مجلسه: [الخفيف]

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.
(٢) نفح الطيب ٢/٢٢.
(٣) الصب: العاشق المشتاق.
(٤) نفح الطيب ٢/٢٢.

قـلْ لِقَـاضـي الجمـاعـة البَلُّـوطـي ... مـا تَرَى فـي خَـرِيدَةٍ كالْخُـوط[1]
نــاكهــا لِلثَّــوَابِ قــوم ظِــراف ... هَـلْ تَرى فـي ذَا سَيِّدِي من سُقُوط

فكان من جمال تعليقه رحمه الله على كتابهم بأن وقَّع «لا» مفردة! فقال له من حضر: «ما هذا؟» فقال: أردت لا أرى ذلك؟ فقالوا: لا يفهم عنك إلاّ غيره. فقال: كل يجاوب على معتقده. . ![2].

وروى[3] تلميذه قاسم بن أحمد الجهني أن منذراً خرج ذات يوم لحيازة أرض محبسة في ركب من وجوه الفقهاء وأهل العدالة، فعرض لهم في الطريق كلاب مع مستوحمة يلعقون هَنَهَا ويدورون حولها، فالتفت منذر إلى السائرين معه وقال: ترون يا أصحابنا ما أبر الكلاب بالْهَنِ الذي تلعقه وتُكْرمه ونحن لا نفعل ذلك؟ ثم لوى عنان دابته وقد أضحك الجميع ونظر بعضهم إلى بعض متعجبين من هزله.

ومن مستملحاته رحمه الله أنه حضر[4] عند الخليفة المستنصر يوماً ببستان الزهراء على مسبح وسط روضة نافحة، وكان يوماً شديد القيظ، فاشتكى إلى الخليفة من وهج الحر، فطلب منه المستنصر بالله أن يخفف من ثيابه وينغمس في الماء، فاستحيى القاضي وانقبض من ذلك وقَاراً، فأمر الحكم حاجبه جعفر أن يسبقه في النزول ليسهل عليه الأمر وأَلَحَّ عليه الحكم بعدها في النزول، فاستجاب منذر لإلحاحه فاتَّزَر ونزل وبقي جاثماً

---

(١) الخريدة: البكر. الخوط: الغصن الناعم.

(٢) البيان المغرب ٢/ ٢٥٠.

(٣) مطمح الأنفس، ص ٢٥٥، ونفح الطيب ٢/ ١٨.

(٤) انظر: مطمح الأنفس، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٥، واقتباس الأنوار، ص ٤٤، والمرقبة العليا، ص ٧٢، ٧٣.

لا يتحرك من مكانه، والحاجب يجول في المسبح شمالاً ويميناً يطلب من القاضي مساجلته في السباحة.

فقال الحكم: لم لا تفعل مثله يا قاضي؟ فقال منذر رحمه الله: يا أمير المؤمنين الحاجب سلَّمه الله لاَ هَوْجَل معه، وأنا بهذا الهوجل الذي معي يعقلني ويمنعني من أن أجول معه مجاله، يعني أن الحاجب خَصِي، فانفجر الحكم ضاحكاً من نادرته ولطف تَعْرِيضه، وخجل الحاجب من قوله ولامه لوم الأشراف.

ولم يكن رحمه الله يغفل عن ممازحة أهل بيته وأسرته ويبسط عليهم جانباً من الفرح والسرور فترة بعد فترة، فكانت علاقته بهم علاقة الأب العطوف والمربي القدير.

يحكي[1] سعيد ابن القاضي منذر قال: قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم مع أبينا للإفطار، فإذا سائل يقول: أطعمونا من عشائكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة هذه الليلة ويكثر من ذلك، فقال القاضي: إن استجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح من واحد.

هذا هو قاضينا منذر رحمه الله، فقد كان وسطاً في أخلاقه دون إفراط ولا تفريط مع غاية الوقار والمهابة عليه.

قال البناهي واصفاً منذراً وقد أحسن في وصفه: «وكان هذا القاضي على متانته وشدة جزالته حسن الخلق، خفيف الوطأة، سهل الجانب، كثير الدعابة، منطلق البشر، حتى أنه ربما استراب بباطنه من لا يعرفه إذا شاهد استرساله، فإذا رَامَ أَحَد أن يصيب من دينه ثَارَ ثَوْرَةَ اللَّيث»[2].

(١) نفح الطيب ٢/١٧، ومطمح الأنفس، ص ٢٤٥.

(٢) المرقبة العليا، ص ٧٢.

وبهذه الأخلاق العالية، والفضائل الجليلة الجامعة لصنوف البر ومكارم الأخلاق، عاش منذر بين الناس، فرأوا فيه العالم القدوة، والقاضي العادل الذي لا يماري في حق ولا يسكت عن باطل، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، قائماً على شؤون المسلمين، زاهداً فيما عند الناس، طامعاً فيما عند الله، تقيًا ورعاً ألبسه ربه ثوب المهابة والوقار في غير تكبر، شديد التواضع خافض الجناح في غير تذلل.

فصار بذلك رحمه الله قدوة أهل الأندلس ونبراسها، واحتل المنزلة الرفيعة والمقام الأسنى في قلوبهم مع الحب والود والتبجيل، وشهدوا له بالعدالة والصدق.

ومما يدل على ذلك أن الخليفة المستنصر لما وسَّع التوسعة[١] العظيمة المشهودة للمسجد الأعظم بقرطبة اجتنب الناس الصلاة فيها لشكهم في المال الكثير الذي أنفقه عليها من أين اكتسبه؟

فلما بلغ المستنصر الخبر أشهد القاضي منذر على أنه من مال الخمس، فشهد أمام الناس، فصدَّق الناس وصلُّوا.

❑ ❑ ❑

(١) انظر ذلك في المعجب، ص ٤٥٧.

المبحث الثاني
خاتمة القاضي منذر والثناء عليه

بعد عمر مديد وحياة حافلة بالعطاء والإنجازات، ومليئة بالأعمال الصالحة والمواقف المشهودة الخالدة، أحسَّ القاضي منذر بأن داعي الحق قد اقترب، وأن الآخرة أقبلت، والدنيا قد وَلَّت وأدْبرت، فأخذ يُنْعِي نفسه بشعر مؤثِّر قائلاً: [الخفيف]

كَمْ تَصَابَى وَقَدْ عَلاَكَ الْمَشِيبُ ... وَتَعَامَى عَمْداً وَأَنْتَ اللَّبِيبُ
كَيْفَ تَلْهُو وقد أَتَاكَ نذير ... أن سَيَأْتي الحِمَامُ منك قريبُ[(١)]
يا سَفِيهاً قد حان منه رَحِيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عَصِيبُ
إن لِلْمَوْتِ سَكْرة فارْتَقِبْها ... لا يداويك إن أتاك طبيبُ[(٢)]
كم تَوَانى حتى تصير رهيناً ... ثم تأتيك دعوة فَتُجِيبُ
بأمور الْمَعَادِ أنت عَلِيم ... فاعملن جَاهِداً لها يا أَرِيبُ
وتذكر يوماً تحاسب فيه ... إن من يَذَّكَرْ فسوف ينيب
ليس من ساعة من الدهر إلاَّ ... للمنايا عليك فيها رَقِيبُ
كل يوم ترميك منها بِسَهْم ... إن تَخَطَّى يوماً فسوف يُصِيبُ[(٣)]

* وفاة منذر:

توفي منذر رحمه الله تعالى ليلة الخميس بتاريخ ثمان وعشرين

---

(١) الحمام: الموت.
(٢) هذا الشطر روي في نفح الطيب هكذا: لا يداوي إذا أتتك طبيب.
(٣) القصيدة وردت في مطمح الأنفس، ص ٢٤٤، ونفح الطيب ١/٣٧٦.

ذي الحجة، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة باتفاق المؤرخين وعلماء التراجم الأندلسيين وجُلِّ المشارقة[1]. ووهم ابن كثير وابن الأثير إذ جعلاه ضمن وَفَيات سنة ٣٦٦هـ[2].

وكان عمر منذر رحمه الله حينها اثنتين وثمانين سنة وسبعة أشهر[3]. ودفن بمقبرة قريش بالرَّبَض الغربي من قرطبة[4].

وهذه هي سنة الله تعالى في خلقه، فالبقاء والدوام له سبحانه وحده، وبذلك طويت صفحة مشرقة لعالم مصلح وقاض ملهم، وارتفعت روحه الطاهرة لباريها ترجو المغفرة وتستمطر رحمة الله الواسعة مؤملة رضوانه وجنته، وبقي لإمامنا في عالم الشهادة الذكرى العطرة لتمنحه عمراً ثانياً كما قال الشاعر:

ذِكْرُ الفتى عُمْرُه الثاني وحَاجَته ... ما فاته وفُضُول العَيش أَشْغَالُ

وقال الآخر في نفس المعنى:

فارْفَعْ لنفسك بَعْدَ موتك ذِكْرَها ... فالذِّكر للإنسانِ عُمْرٌ ثانِ

ولا تزال ذكرى منذر يفوح أريجها في المجالس وتتناولها الأقلام

---

(١) انظر: تاريخ العلماء ٢/١٤٣، وقضاة قرطبة، ص ١٧٦، ومطمح الأنفس، ص ١٣٩، وإنباه الرواة ٢/٢٩٥، ونفح الطيب ٢/٢٢.

(٢) البداية والنهاية ١١/٣٤٧، والكامل ٧/٣٤٦، وذكر السيوطي أنه توفي يوم الخميس لأربع خلون من ربيع الأول سنة ٣٤٩هـ، وهو غلط منه. انظر: بغية الوعاة ٢/٣٠١.

(٣) انظر: تاريخ العلماء ٢/١٤٣، وهو موافق مع ما أثبتناه في تاريخ ولادته وذكر الخشني أنه بلغ أربعاً وثمانين. انظر: قضاة قرطبة، ص ١٧٦.

(٤) تاريخ العلماء ٢/١٤٣، ونفح الطيب ٢/٢٢.

كمثل يحتذى في الأخلاق السامية والهمة العالية والمواقف الخالدة والثناء الجميل الذي نفرده فيما يأتي:

* **الثناء عليه:**

١ ــ قال الزبيدي: «منذر بن سعيد القاضي... كان متفنناً في ضروب العلوم... وكان ذا علم بالقرآن حافظاً لما قالت العلماء في تفسيره وأحكامه ووجوهه في حلاله وحرامه، كثير التلاوة له، حاضر الشاهد بآياته، له فيه كتب مفيدة... وكان ذا علم بالجدل حاذقاً فيه، شديد العارضة، حاضر الجواب، ثابت الحجة، وكان أخطب أهل زمانه غير مدافع، مع ثبات جنان، وجهارة صوت، وحسن ترسُّل، وكان ذا منظر نبيل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط إليهم، وإقبال عليهم، وكانت فيه دعابة حسنة... وولي قضاء الجماعة بقرطبة، فلبث قاضياً إلى أن توفي، فما حُفظ له جَور في قضية ولا هوادة بسبب غاية»[١].

٢ ــ قال ابن الفرضي: «منذر بن سعيد البلوطي... كان عالماً باختلاف العلماء... وكان بصيراً بالجدل، لهجاً بالاحتجاج، له كتب مشهورة كثيرة مؤلفة في القرآن، والفقه، والرد، أخذها الناس عنه وقرأوها عليه، وكان خطيباً بليغاً شاعراً، وقال: قدم إلى قضاء الجماعة بقرطبة... فلم يزل قاضياً إلى أن توفي، ولم تحفظ له قضية جور ولا جرِّبت عليه في أحكامه زلة»[٢].

٣ ــ وقال عنه الخشني: «ولي منذر بن سعيد قضاء الجماعة،

---

(١) طبقات الزبيدي، ص ٢٩٥.

(٢) تاريخ العلماء ٢/ ١٤٢ ــ ١٤٣.

فكان صليباً صارماً غير هَيُوبٍ ولا جبان»[1].

٤ ـ وقال عنه محمد بن حارث القروي: «كان من أهل النفاذ والتحصيل، متدرباً للمناظرة، متعلقاً بالإنصاف، جيد الفهم طويل العلم، بليغاً موجزاً يميل إلى طرق الفضائل، ويوالي أهلها، ويلهج بأخبار الصالحين»[2].

٥ ـ وقال ابن حزم: «وكان قاضي القضاة منذر بن سعيد... أخطب الناس، وأعلمهم بكل فن وأورعهم، وأكثرهم هزلاً ودعابة»[3].

٦ ـ وقال فيه ابن خاقان: «منذر بن سعيد... أَيَّةُ حركةٍ في سُكُون، وَبَرَكَة لَمْ تَكُنْ مُعَدَّةً ولا تَكُون، وَأَيَّةُ سَفَاهَةٍ في تَحَلُّم، وَجَهَامَةُ وَرَعٍ في طَيِّ تَبَسُّم، إذا جَدَّ وَجَدَ، وإذا هَزَلَ نَزَلَ، وفي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لم ينزل للورع عن مَرْقَب، ولا اكْتَسَب إِثماً وَلا احْتَقَبَ، ولي قضاء الجماعة بقرطبة... نَاهِيك من عَدْل أَظْهر، ومن فَضْل أَشْهر، ومن جَوْر قبض، ومن حَقٍّ رفع، ومن بَاطِل خَفَض.

وكان مَهِيباً صَليباً صَارِماً غَيْر جَبَان، ولا عَاجِز، ولا مُرَاقِب لأحد من خلق الله في استخراج حَقٍّ ورفع ظُلْم، واستمر في القضاء إلى.. أن توفي بعد أن اسْتَعْفَى مراراً فما أُعْفِي، لم تحفظ عليه مدة ولايته قَضِيَّة جَوْر، ولا عُدَّت عليه في أحْكَامِهِ زلَّة، وكان غزير العلم، كثير الأدب، متكلماً بالحق متبيِّناً بالصدق... وكان خطيباً بليغاً وشاعراً محسناً»[4].

وقال فيه أيضاً: «وكان القاضي منذر بن سعيد من ذوي الصلابة في

---

(١) قضاة قرطبة، ص ١٧٥.

(٢) السير ١٦/ ١٧٥.

(٣) طوق الحمامة، ص ٤٥.

(٤) مطمح الأنفس، ص ٢٣٧، ٢٣٨.

أحكامه، والمهابة في أقضيته، وقوة القلب في القيام بالحق في جميع ما يجري على يديه، ولا يَهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه»[١].

٧ ـ وقال فيه عبد الواحد المرَّاكشي: «وكان وقوراً صليباً في الحكم، مقدماً على إقامة العدل والحق، وإزهاق الجور والباطل، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، له كتب في السنَّة والورع، والرد على أهل الأهواء والبدع»[٢].

٨ ـ وقال عنه الحميدي: «منذر بن سعيد القاضي. . . كان عالماً فقيهاً، وأديباً بليغاً، وخطيباً على المنبر وفي المحافل مصقعاً»[٣].

٩ ـ وقال ابن بشكوال: «منذر بن سعيد خطيب بليغ، لم يكن بالأندلس أخطب منه مع العلم البارع والمعرفة الكاملة، واليقين في العلوم والدين والورع، وكثرة الصيام والتهجد والصدع بالحق، كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد استسقى غير مرة فسُقي»[٤].

١٠ ـ وقال فيه ابن كثير: «كان إماماً عالماً، فصيحاً خطيباً شاعراً أديباً، كثير الفضل، جامعاً لصنوف من الخير والتقوى والزهد»[٥].

١١ ـ وقال عنه ابن الأثير: «كان إماماً فقيهاً، خطيباً شاعراً فصيحاً، ذا دين متين»[٦].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٢.

(٢) المعجب، ص ٥٦.

(٣) جذوة المقتبس، ص ٣٢٦.

(٤) السير ١٦/ ١٧٤.

(٥) البداية والنهاية ١١/ ٣٤٧.

(٦) الكامل ٧/ ٣٤٦.

١٢ ـ وقال الذهبي: «كان فقيهاً محققاً، وخطيباً بليغاً مفوهاً[١]. وقال أيضاً: وكان فطناً مناظراً ذكيًّا بليغاً مفوهاً شاعراً، كثير التصانيف قوّالاً بالحق ناصحاً للخلق، عزيز المثل رحمه الله»[٢].

١٣ ـ وقال ياقوت الحموي: «كان نحويًّا فاضلاً وخطيباً مصقعاً، وشاعراً بليغاً.. وكان وقوراً صليباً في الحكم مقدماً على إقامة العدل والحق... وكان شديداً في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت له مقامات بين يدي الخليفة الناصر يتناوله فيها بالعظات والزواجر غير هياب ولا محتشم»[٣].

١٤ ـ وقال فيه الخليفة الناصر بعدما أشير عليه بخلع منذر: «أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه، لا أم لك! يعزل لإرضاء نفسٍ ناكبة عن الحق، هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله ألاَّ أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه»[٤].

١٥ ـ وقال فيه أمير المؤمنين الحكم: «كان فقيهاً فصيحاً خطيباً لم يسمع بالأندلس أخطب منه، وكان أعلم الناس باختلاف العلماء، شاعراً لبيباً أديباً، له تصانيف حسان جدًّا»[٥].

❑ ❑ ❑

(١) السير ١٦/ ١٧٤.

(٢) العبر ٢/ ٩٦.

(٣) معجم الأدباء ٥/ ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٥.

(٤) مطمح الأنفس، ص ٢٤٨.

(٥) السير ١٦/ ١٧٤، ١٧٥.

الخاتمة

وبهذا البحث أرسينا دعائم متجددة في النهوض بذكر هذا الإمام الفذ، والقاضي الجليل، الذي غمرتنا سعادة فائقة في التعرف عليه، والوقوف بإعجاب أمام إنجازاته الحافلة، وعطاءاته المتعددة، ومواقفه الجريئة الدائرة مع الحق حيث دار، والدفاع عن قضايا الأمة، وإشاعة العدل والسهر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كانت نتائجه تصب في النهوض بدولة الأندلس الأموية وصيانتها من الخلل والضعف، والسير بها إلى تحقيق الرسالة الكبرى التي وجدت من أجلها.

وأهم ما يمكن أن نستخلصه من حياة هذا الإمام الجليل:

أولاً: أن العلماء هم ورثة الأنبياء، وحملة الشريعة الغراء الذين أفنوا أعمارهم في خدمة هذا الدين، والذود عن حياضه، والسير بالأمة إلى سبيل الفلاح فحقهم علينا أن نبجلهم، ونبيِّن فضلهم، ونعلي ذكرهم، ونجتهد في الاستفادة من سيرهم واقتفاء آثارهم حتى نحقق قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

ثانياً: أن صلاح الأمة إنما يكون بصلاح العلماء المخلصين الذين يوظفون مكانتهم ومناصبهم في خدمة قضايا الأمة، والسهر على

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

مصالحها، ولا يخافون في الله لومة لائم، وأيضاً بصلاح الأمراء الذين يعترفون بفضل العلماء، ويخضعون للحق.

ثالثاً: أن القاضي منذرَ بن سعيد يعتبر نموذجاً للعالم العامل، والفقيه الرباني الذي سعدت به الأندلس، وعرفت فضله، فعلا أمره واستفاض ذكره.

رابعاً: أن الاتصاف بالأخلاق الإسلامية الرفيعة يعتبر مطلباً أساسياً في العالم، فقد كان منذر رحمه الله قدوة في أخلاقه ومعاملاته، جمع بين شدة التقوى والورع، والزهد في الدنيا وملذاتها رغم انبساطها له، وكان مهيباً جليل القدر، مع الجرأة في إثبات الحق وإزهاق الباطل، لا يفارقه التواضع في شتى أحواله ويزداد مع طلابه.

خامساً: أن القضاء منصب أساسي، عليه تقوم ركائز الدول، وبه تثبت الحقوق وتدفع المظالم، ويرسخ العدل، ويسود الأمن، وتصان به المحارم، وإنما يكون فساد الأمم باختلال ميزان القسط فيها.

ولقد كان القاضي أبو الحكم رحمه الله نعم القاضي العالم منذ ولي أول منصب قضائي في الأندلس، «ناهيك من عدل أظهر، ومن فضل أشهر، ومن جور قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفض، وكان مهيباً صليباً صارماً غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم... لم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور، ولا عُدَّت في حكومته زلة»[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) مطمح الأنفس، ص ٢٣٨.

مُلحق

ويتضمن تحقيق رسالتين مخطوطتين

للقاضي مُنذر بن سعيد البلّوطيّ

(ت/٣٥٥ هـ)

الرسالة الأولى

كِتَابُ القَاضِي مُنْذِرِ بنِ سَعِيدٍ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ فِيمَا أُنكِرَ عَلَيهِ مِنْ تَحْوِيلِهِ الرِّدَاءَ فِي الخُطْبَةِ الأُولَى مِنْ خُطَبِ الاسْتِسْقَاءِ

الرسالة الثانية

نَقضُ وَثِيقَةٍ عُقِدَتْ فِي إِسْلامِ نَصْرَانِيٍّ

تَحقِيق

عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ مُحَمَّدٍ الهَيَاوِيِّ السِّجِلْمَاسِيِّ

الرسالة الأولى

كِتَابُ ٱلقَاضِي مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ فِيمَا أُنكرَ عَلَيهِ مِنْ تَحْوِيلِهِ ٱلرِّدَاءَ فِي ٱلخُطْبَةِ ٱلأولَى مِنْ خُطَبِ ٱلاسْتِسقَاءِ

تحقيق

عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الهِيَاوِي السِّجِلْمَاسِيّ

تمهيد

لمَّا وفقني الله لاختيار دراسة سيرة هذا الإمام الجليل، ووقفت على تلك النقول المتنوعة في كتب التراجم وغيرها التي تهتز بتلك المواقف الخالدة المنبثقة من إيمان راسخ وشعور بالعزة في غير كبرياء، واستحضار للمسؤولية الداعية لأداء واجب الإصلاح مهما عظمت المشقة، تاقت نفسي للوقوف على شيء مما وَرَّثه هذا القاضي حتى تزداد صورته لدينا وضوحاً، ونتمكن من إجلاء الغشاوة عن تلك الجوانب الضامرة من سيرته.

فعمدت إلى تتبع كل ما يمكن أن يهديني إلى شيء من ذلك من فهارس ومعاجم، مع سؤال الباحثين والمهتمين، فلم أظفر بما يفيد عن خلوص شيء من ذلك إلينا، إما لفقده، أو لتعسر الوصول إليه في خزائن المخطوطات التي يستدعي الكثير منها تضافر الجهود لجرد محتوياته، وإني مع ذلك لمتفائل باكتشاف بعض مصنفاته ما دامت لم تبق حبيسة إطار جغرافي ضيق، بل كتب لها الانتشار في أقطار عدة كما تَوَضَّح لنا من تلك النقول التي سبقت الإشارة إليها في مواطن عدة من ترجمته.

ولقد كان ذلك التفاؤل في محله حين يسَّر الله سبحانه العثور على رسالتين مخطوطتين له كانت الخزانة العامة برباط الفتح وفيّة لفضل هذا

الإمام بحفظها لهما، والفضل يعود إلى الباحث النحرير الأستاذ عبد العزيز الساوري الذي أرشدني إليهما.

ونظراً لأهميتهما عقدت العزم على أن أشفع بهما هذه الدراسة بعدما حققتهما سعياً لنشر تراث القاضي منذر، واستجابة للمتلهفين لقراءته.

أما أولى هاتين الرسالتين فهي عبارة عن فتوى يردُّ فيها على من أنكر عليه تحويله الرداء في الخطبة الأولى للاستسقاء.

وهذه الفتوى تضطلع بمعالجة قضية فقهية دقيقة أبان فيها منذر عن مكانته العلمية الرفيعة بسعة اطلاعه على أقوال الفقهاء وآرائهم مع بسط الأدلة، والدراية بطرق الاستنباط، ثم أفاض في بيان رأيه مدافعاً عنه بحجج متنوعة وبعبارات قوية محكمة، وبأسلوب جزل رصين ينتقد فيه على المخالف ومن شابهه من الأحداث المتفيقهين ممن يصول دون أن يعلم مستند ما يقول.

والرسالة توجد في الخزانة العامة بالرباط، ضمن مجموع يحمل رقم (٢٠٩ ق)، وقد كتبت بخط أندلسي بديع، وكان الفراغ من نسخه مساء يوم الاثنين السادس من رمضان المعظم عام الواحد والألف كما هو منصوص عليه في رسالة أخرى ضمن نفس المجموع عند الصفحة رقم ١٧٨.

والذي تولى نسخه هو: عبد الله الراغب فيما عنده يوسف بن أحمد الهنظيفي، وهي مكونة من صحيفتين مرقمتين حسب تسلسل المجموع (ب: ٢٥٠، ٢٥١)، تبلغ سطور كل صفحة ٢٥ سطراً، وليس بها سقط أو خرم خلا بعض التصحيفات والزيادات المنافية للسياق وسلامة المعنى

رغم وجود علامات تدل على المقابلة، فعمدت أولاً إلى إصلاح ما فيها من خلل حسب ما تبين لي، ثم كتبت الرسالة وفق قواعد الإملاء وعلامات الترقيم الحديثة مجتنباً الإطالة في الحواشي والتعليقات، مع تخريج الأحاديث وتوثيق الأقوال والنقول من كتب الفقه المعتمدة عند كل مذهب.

والرسالة وثيقة نادرة من تراث القاضي منذر المفقود، وقد أبانت عن الازدهار العلمي الذي كانت تعرفه الأندلس آنذاك، مما أدى إلى توليد مثل هذه المناقشات العلمية.

❑ ❑ ❑



صورة الورقة الأولى من كتاب القاضي منذر بن سعيد إلى بعض إخوانه

فيما أنكر عليه من تحويله الرداء في الخطبة الأولى من خطب الاستسقاء

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

كتاب القاضي منذر بن سعيد: إلى بعض إخوانه فيما أنكر عليه من تحويله الرداء في الخطبة الأولى من خطب الاستسقاء.

ذكرت ــ أكرمك الله ووفقك ــ أن بعض المنتسبين إلى العلم أنكر تحويلي الرداء يوم الاستسقاء في آخر الخطبة الأولى، وأكبرَ ذلك، وأن (أنكره)[1] تضاعف في الاستسقاء الثاني، إذ ظن الفعلة الأولى إنما كانت على جهة النسيان، أو من طريق الخطأ والإغفال، وهذه ــ أكرمك الله ــ أمنية من خانه حسن الروية، وأمسكت ــ حفظك الله ــ عن مكاشفتك، أن توقعني على معرفته، أو توقع ظني عليه بما تشير إليه من صفوته، إذ توقعت أن يكون من إخواننا، ومن يعقد إظهار محبتنا، فتكون معرفتنا به سبباً للمنافرة، وقَصْدُنَا له بالمخاطبة موجباً للمقاطعة.

وقد كان ــ أبقاك الله ــ الأَولى بمن هذا قدره في العلم أن يتعلم قبل أن يتكلم، وأن لا يرى نفسه أهلاً للفتيا حتى يعلم أقاويل العلماء؛ لأن من كان غرضه التكلم قبل التعلم فضحه الامتحان، وأبدى عن نقصه وقلة البيان.

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: إنكاره.

ولو علم هذا الذي فرح فيما رأى بما اختلسه، وظفر بما افترسه، أن الخطيب لو ترك تحويل الرداء إما عامداً وإما ناسياً، لا يلحقه نقص عند من نظر بصحة العقل، وعلم فرق ما بين الفعل والأمر، لبان له أنه من أهل الإغفال، ولردعه عن القول بما قال؛ إذ تحويل الرداء إنما كان فعل فعله رسول الله ﷺ ولم يأمر به، فإن كان الفعل والأمر منه ﷺ عند المنكر لفعلنا بمنزلة سواء، فليصرح بذلك وليُذعه عند مجالسيه، ثم ليصغ إلى ما يقول أهل العلم فيه.

ما أمر به ﷺ فلا يجوز تركه ولا مخالفته، وما فعله ولم يأمر به لم يكن المرء مأثوماً بتركه، ولا حرجاً في التخلُّف عن فعله، إلاَّ أن يوجب فعل ذلك ما يوجب التسليم به.

وذكرت ـ أبقاك الله ـ أن أعلى ما لجأ هذا القائل إليه، واعتصم به وعوّل عليه، فإلى قول الليث[1]، فقال الليث: فكان حينئذ ماذا؟ لقد اهتدى هذا المغفل بفكر بليد، وآوى إلى ركن غير شديد، كأنه قد نزع بآية، أو نطق عن رواية، ما رأينا أصحابنا أئمة ـ حفظهم الله ـ يستوحشون من ترك قول مالك، وهو من جلَّة المسلمين في العلم، إلى قول ابن القاسم وأشهب وابن نافع وأصبغ، بل إلى قول من هو دونهم؛

(١) وهو مذهب مالك أيضاً، حيث جعل تحويل الرداء، واستقبال القبلة للدعاء إنما يكون بعد الانتهاء من الخطبتين. انظر: المدونة ١/ ١٦٦.
وقال الشافعية: يحول رداءه، ويستقبل القبلة في صدر الخطبة الثانية. انظر: روضة الطالبين ٢/ ٩٤.
وقال الحنابلة: يستقبل الإمام القبلة في أثناء الخطبة، ويحول رداءه. انظر: المقنع والشرح الكبير ٥/ ٤٢٩.

إذا ظهر لهم أن الحق فيما خالفوا إليه.

ولو علم هذا المغفل أن خطبة الاستسقاء جائزة قبل الصلاة وبعدها[(١)]، وأن ذلك قد فعله الأئمة، وقال به العلماء؛ إذ لم يروا في ذلك عن النبي ﷺ أمراً يوجب (خصر)[(٢)] العلم إن ما دون ذلك كذلك.

قد ثبت أن النبي ﷺ صَلَّى ثُمَّ استسقى، وفعل ذلك عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وصلَّى (الله)[(٣)] عبد الله بن يزيد بن نسيك، ثم استسقى، وبه قال مالك[(٤)]، والشافعي[(٥)]، وأبو حنيفة[(٦)] وهم علماء الأمصار في جميع الأقطار، ولم يروا ذلك خلافاً للسنة؛ لأن النبي ﷺ فعل ذلك، ولم يأمر به، ومالك ومن قال بقوله لا يرون في

---

(١) أما قبل الصلاة فلما رواه عبد الله بن زيد، قال: «خرج النبي ﷺ يستسقي فتوجه إلى القبلة يدعو وحول رداءه، ثم صلى ركعتين جهر فيهما بالقراءة». أخرجه البخاري في باب الجهر بالقراءة في الاستسقاء. صحيح البخاري ٢/ ٦٦٣، ومسلم بدون ذكر: «وجهر فيهما بالقراءة» في أول كتاب الاستسقاء، صحيح مسلم ٦/ ٣٢٨.
وأما بعدها فلحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «خرج النبي ﷺ يوماً يستسقي فصلى بنا ركعتين... ثم خطبنا...». أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء في صلاة الاستسقاء: السنن ٢/ ٩٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٦.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب «حصر» بإسقاط النقطة.

(٣) كذا كتبت، والصواب: حذفها.

(٤) انظر: المدونة ١/ ١٦٦، وحاشية الدسوقي ١/ ٦٣٥.

(٥) انظر: المجموع ٥/ ٧٥، ومغني المحتاج ١/ ٤٨١، ٤٨٢.

(٦) ظاهر الرواية عن أبي حنيفة أنه: لا صلاة في الاستسقاء وإنما الدعاء، وسيشير المؤلف إلى ذلك قريباً. وانظر: بدائع الصنائع ١/ ٦٣١، ٦٣٢.

الاستسقاء إلاَّ تكبيرة الإحرام وحدها[1]، وعمر بن عبد العزيز وابن المسيب وأبو بكر بن حزم والشافعي يوجبون في الاستسقاء من التكبير ما يوجبون في العيدين[2].

وقال مالك في تحويل الرداء يجعل الذي عن يمينه عن يساره، والذي عن يساره عن يمينه[3]، وقال بذلك الشافعي، وزاد فقال: يجعل (أعلى)[4] أسفله[5]، وقالا جميعاً: ويفعل الناس كما يفعل الإمام، كل واحد منهما على مذهبه[6]، وقال محمد بن الحسن فيمن تابعه من أهل العراق (ليس)[7] تحويل الرداء على الإمام وحده؛ إذ ليس في شيء من الآثار أن النبي ﷺ أمر به غيره.

وقال مالك والشافعي: يخطب الإمام في الاستسقاء خطبتين يفصل بينهما بجلسة[8]، وقال عبد الرحمن بن مهدي، ومحله من الفقه والأثر

---

(١) انظر: حاشية الخرشي ٢/ ٣١٤.

(٢) وهو قول داود الأصبهاني، وحكي عن ابن عباس. انظر: المغني لابن قدامة ٣/ ٣٣٥.

(٣) انظر: المدونة ١/ ١٦٦.

(٤) كذا كتبت، والصواب: أعلاه.

(٥) قال النووي: هذا على مذهبه الجديد، وأما القديم فلا تنكيس فيه. انظر: روضة الطالبين ٢/ ٩٤.

(٦) انظر: المدونة ١/ ١٦٦، روضة الطالبين ٢/ ٩٤.

(٧) الصواب إبدالها بـ«إن» حتى يستقيم الكلام، وانظر كتاب الأصل المعروف بالمبسوط لابن الحسن ١/ ٣٩٨.

(٨) انظر: المدونة ١/ ١٦٦، والأم ١/ ٢٢١ استدلالاً بقول ابن عباس: صنع رسول الله ﷺ في الاستسقاء كما صنع في العيدين.

محله: يخطب خطبة واحدة[1] كما فعل النبي ﷺ، وقال عطاء بن أبي رباح: ما جلس النبي ﷺ على المنبر حتى مات، وأول من جلس عثمان بن عفان في آخر زمانه حين كبر، يجلس هنيهة ثم يقوم[2]، وكان المغيرة بن شعبة يخطب الناس ثم لا (ينزل)[3] يجلس حتى ينزل[4]، كان هؤلاء أكبر من الليث.

وقد أجاز قيس بن أبي حازم الاستسقاء بغير صلاة، وقال أبو حنيفة: لا صلاة في الاستسقاء، إنما هو الدعاء[5]، فأين هذا المغفل الذي خانه التحصيل، عن معرفة هذه الأقاويل، فقد أريناه ما لم يعلمه، ووفقناه على ما لعله لا يشكر عليه لأنه لا يفهمه، فليوجدنا هو أن النبي ﷺ خطب في الاستسقاء خطبتين فصل بينهما بجلسة، وأنه حوَّل رداءه في الآخرة من خطبته، وأنه أمر الناس أن يحوِّلوا أرديتهم، ولن يجد ذلك أبداً من طريق صحيح ولا سقيم، ولو وجد ذلك ما قامت له به حجة، لما بينَّاه من فرق ما بين الأمر والفعل.

قد ثبت عنه ﷺ أنه كان يرفع يديه عند الركوع والسجود، وسلم تسليمتين، ويجافي في ركوعه وسجوده، ويصلي ركعتين قبل الصبح وبعد المغرب إلى كثير من أفعاله التي فعلها ولم يأمر به[6]، مما يطول بذكره

---

(١) وهو مذهب الحنابلة أيضاً. انظر: الشرح الكبير ٥/٤٢٣، ٤٢٤، والمغني ٣/٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥٢٦٦) ٣/١٨٨.

(٣) هكذا في الأصل، والصواب إسقاطها.

(٤) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٣/١١٣.

(٥) تقدم تخريج قول أبي حنيفة.

(٦) كذا في الأصل.

الكتاب، ويتصل به الخطاب، والعلماء بأسرهم مجتمعون على أن تارك ذلك غير حرج في فعله، ولا مأثوم بتركه، ولو كان النبي ﷺ أمر بذلك لوجب فعله، ولما جاز لأحد تركه.

ولو أن هذا المغفل ــ والله يغفر لنا وله ــ أنعم الرَّوِيَّة، وقَدَّم حسن النية، لعلم أن الخطبة الثانية في الاستسقاء إنما هي مقصورة على الدعاء للإمام، ولعامة أهل الإسلام، من ذلك الخلفاء؛ إذ قدَّموا غيرهم للصلاة بهم ولم ينكر ذلك العلماء عليهم؛ إذ لم يمنع من ذلك الكتاب ولا السنة، ولا أجمع على المنع منه علماء الأمة، فقد كان يجب لهذا القائل أن لا يصول حتى يعلم من حيث يقول، وإن كانت له الآن حجة فليدل بحجته، وليُبدِ لنا عن صفحته، حتى نرضخ[1] له عن إغفاله، ونوقف من لا يعلم قدره على جهله وقبيح اختياره.

وقد رأى جميع أصحابنا ــ حفظهم الله ــ الذين يقع عليهم اسم العلم وهم من أهله فعلنا بما علمت، ولا نقل لي أن أحداً منهم أنكر ما أنكره هذا المغفل، والله المستعان على جهل من لم يوفق للصواب، والسلام عليكم ورحمة الله.

[من الطويل]

كفى حُزناً أنّي مقيم ببلدةٍ ... أولوا الفهم منهم ما أقُولُ قليلُ
إذَا عارضُوا يوماً صوابي بجهلِهم ... توهَّمْتَ أنّي في الصواب مَحِيلُ
ولولا ولي العَهد دامَت حياته ... لطَلقتهم بثا وحال رحيلُ
إمامُ ملك يجلو الصدى عن عقولنا ... بفهم كحَد السيف وهو صقيلُ
عِمادٌ وكسب للعلوم وأهلِها ... فما آنَ لها إلاَّ عليه سبيلُ

❑ ❑ ❑

---

(١) اجتهدت في قراءتها لعدم وضوحها.

الرسالة الثانية
نَقْضُ وَثِيقَةٍ عُقِدَتْ
في إسلامِ نصرانيٍّ

تحقيق

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الهِيبَاوِي السِّجِلْمَاسِيّ

تَمْهِيد

هذه هي الرسالة الثانية للإمام منذر بن سعيد داخل نفس المجموع بالخزانة العامة بالرباط، وهي مكونة من صحيفة وجزء الصحيفة يحملان الرقم التسلسلي (٢٥٢ ـ ٢٥٣).

وهذه الرسالة لا تختلف عن سابقتها من حيث أوصافها، وقد نهجت فيها نهجي في الرسالة السابقة مع تخريج ما ورد بها من آيات قرآنية، مع بعض التعليقات الخفيفة، وقد عرضتها على أستاذنا الفاضل الدكتور عبد الإلـه الأحمدي أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية، فأفادني ببعض التوجيهات ـ حفظه الله وأجزل له المثوبة ـ .

والمطلع على هذه الرسالة القيمة لا يخفى عليه شديد أهميتها، لكونها تعطي توجيهاً سديداً للموثِّقين وكتَّاب العقود حتى يتحروا ما يسطرون، ويكونوا على بينة ودراية لما يكتبون، حتى لا يتأهل لمثل هذه الأمور إلاَّ من هو أَهْلٌ لها.

كما أن الرسالة تبين عن نفس منذر الطويل في إثبات الحجة وتنويع وجوه الاستدلال وإثراء الموضوع بجوانب مهمة تتصل به، ربما يغفل عنها من لا فطنة له، كالتركيز هنا على نبذ قضية القول بخلق القرآن، والتعنيف على القائلين بذلك.

وأخيراً فهي وثيقة من النفاسة بمكان؛ لأنها أبانت لنا عن صفاء عقيدة منذر، وصلاحها التي تضاربت فيها الأقوال كما تقدم.

فـرحم الله القاضي منذراً وأجزل له الأجر والمثوبة وجعله في عِلِيِّين.

وكتب أيضا رحمه الله إلى بعض إخوانه في وثيقة [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible] كتبت [illegible] من إنكار [illegible]

في الوثيقة التي [illegible] إسلام النصراني [illegible]

[illegible] بل يجب في موضع الإنكار [illegible] لما أنه قال في الوثيقة وأنه

[illegible] وأن عيسى رسول الله وكلمته [illegible] يقول النصارى إلى

مريم وروح منه [illegible] مما أنزل الله تعالى في كتابه الحكيم

[illegible] العلم [illegible]

[illegible] وكلمته

[illegible] إلى مريم وروح منه [illegible] أن كلام الله مخلوق لأن عيسى مخلوق وإذا

كان عيسى مخلوقا [illegible] كلمة الله مخلوقة [illegible]

[illegible] عيسى رسول الله [illegible] الله [illegible] عيسى

ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه [illegible] عيسى ابن مريم رسول الله [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] عيسى [illegible] كلمة الله [illegible] كلام الله غير مخلوق ولذا كلام الله عند

[illegible] إن شاء الله تعالى [illegible]

صورة الورقة الأولى من رسالة إلى بعض إخوانه

وفيها نقد وثيقة عقدت في إسلام نصراني

وكتب أيضاً رحمه الله إلى بعض إخوانه في وثيقة عقدها بعض أهل العلم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قرأت ــ أكرمك الله ــ ما كتبت، وفهمت ما أردت معرفته من إنكاري لما أنكرت في الوثيقة التي عقدها بعض أصحابنا في إسلام النصراني، وذكرت أن عاقدها أو غيره أنكر أو هوَّن ما أنكرنا في ذلك، وهيهات ما هو بهيِّن، بل هو في وضع الإنكار وأهل الإكبار، وذلك أنه قال في الوثيقة: «وأنه شهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وأن عيسى رسول الله وكلمته»، وترك أن يصل بين ذلك بأن يقول: ألقاها إلى مريم وروح منه[1].

وخفي عليه إذ لم يكن مما عني ولا استشرفت همته إليه قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[3]، وقال: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

(١) الأصل فيها أنها آية قرآنية موصولة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ...﴾ سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) سورة هود: الآية ١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٤.

﴿يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾[1]، فأخبر جل جلاله أنه فصَّل قوله حيث وجب تفصيله، ووصله حيث وجب توصيله[2].

فالقائل إذا قال: إن عيسى رسول الله وكلمته، ولم يصل ذلك بأن يقول: وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، أوجب أن كلام الله مخلوق؛ لأن عيسى مخلوق، وإذا كان عيسى مخلوقاً وهو كلمة الله، فكلمة الله مخلوقة، وتعالى الله عن ذلك علوًّا[3]، وفي القول بهذا إيجاب القول بخلق القرآن.

وقد كان يكتفي عاقد هذه الوثيقة بأن يقول: وأنه يشهد أن عيسى رسول الله ويصل ما وصله الله فيقول: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[4]، فإن لم يصل ووقف على قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فيكون كلاماً قائماً بنفسه قد استوفى حقه.

ويكون قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ كلاماً مستأنفاً بعده، ومثل هذا في القرآن [في القرآن][5] كثير، لو أن قائلاً قال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ﴾[6] فوقف على هذا وفصَّله بما بعده، لما عدا

---

(١) سورة القصص: الآية ٥١.

(٢) لا يقصد رحمه الله معنى الوصل والفصل الواردان في الآيتين، وإنما الوصل والفصل الاصطلاحي.

(٣) كما يزاد على ذلك خشية الوقوع فيما يعتقده النصارى من أن عيسى هو الكلمة (كن).

(٤) سورة النساء: جزء من الآية ١٧١.

(٥) كذا كررت في الأصل.

(٦) سورة النحل: جزء من الآية ٦٠.

أن يكون كافراً، أو بلسان العرب جاهلاً، وكذلك قوله: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ﴾[١] كان كاذباً، أو بلغة العرب جاهلاً؛ لأن الموتى لا يسمعون حتى يصل ذلك بما أمر الله به أن يوصل، فيقول: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وكذلك لو وقف على: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾[٢] حتى يقول: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، ومثله لو ابتدأ بقراءة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[٣] لم يخل أن يكون كافراً أو جاهلاً حتى يعمل ما أمر الله به أن يوصل: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذا ومثله في القرآن كثير، يدركه من شغل نفسه بتدبر ما أنزل الله فيه، ويعرف حقائق معانيه، وهو محجوب عن من نبذه وراء ظهره وممن [اشتغل][٤] بالبطالة أيام عمره.

وكلمة الله هي التي تكون بها المخلوقات، وهي قوله: ﴿كُن﴾، فلو كانت كلمة الله مخلوقة لوجب أن يكون المخلوق يخلق مخلوقاً، تعالى الله.

والذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون[٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[٦]، وقوله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن

---

(١) سورة الأنعام: جزء من الآية ٣٦.

(٢) سورة البقرة: جزء من الآية ٢٦.

(٣) سورة فصلت: جزء من الآية ٢٢.

(٤) غير موجودة في الأصل، وزدتها لمقتضى السياق.

(٥) اقتباس من القرآن.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

﴿فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ يدل أهل العرب بلسان العرب على أن الضمير الذي في ﴿لَهُۥ﴾ لعيسى، وقوله: ﴿كُن﴾ غير المضمر.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾[1] لما قال: اسمه ولم يقل اسمها دل على أن الكلمة شيء وعيسى غيرها، وبهذا كتب ملك الروم إلى المأمون، قال: «أنتم تقولون إن عيسى كلمة الله وتعتقدون أن كلام الله غير مخلوق، وإذ كلام الله عندكم غير مخلوق، فعيسى كلمة من كلام الله فهو غير مخلوق، فعلام تستحلون سفك دمائنا وأخذ أموالنا وسبي ذرارينا؟»[2].

قد أوضحنا ـ أكرمك الله ـ ما سألته بما يشرف لذوي الأفهام على البغية إن شاء الله تعالى، ولسنا نتعجب من إنكار المنكر لما أنكرناه؛ لأنه إنما أنكر ما لا يعلمه، وتعرض للقول فيما لا يحسنه، ومن تعاطى للتكلم فيما لا يعلمه، ونازع العلم أهله، فإنما ينبه الناس على غفلته، ويبدي لهم عن قِصَر رويَّتِه، ونحن نصفح عن جميعهم وإن جَفَوْا علينا؛ لأنهم مسلمون، ونعذرهم؛ لأنهم جاهلون، ونرغب إلى الله لنا ولهم في أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، ويهدينا وإياهم للتي هي أحسن.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة آل عمران: جزء من الآية ٤٥.

(٢) هذا يرد عليه بالجواب السابق.

ثبت المصادر والمراجع

(أ) المصادر المخطوطة:

١ ــ **التبيين على مثال اليقين**: لمؤلف مجهول، نسبه لمنذر بن سعيد، مكتبة طلعت، دار الكتب المصرية داخل مجموع رقم ٧٧٦.

٢ ــ **تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل**: للقاضي أبي طالب عقيل بن عطية القضاعي، مخطوط بالخزانة العامة رقم ١٠٩ ق، ونسخة أخرى تحت رقم ٦٥٦ ك.

٣ ــ **رسالتين مخطوطتين**: للقاضي منذر بن سعيد، داخل مجموع رقمه (٢٠٩ ق) بالخزانة العامة ــ الرباط.

٤ ــ **منح المنية في شرح الكنية**: للمكي بن محمد بن علي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٢٩٥١ د.

٥ ــ **مفاخر البربر**: لمجهول، مخطوط بالخزانة العامة برقم ١٠٢٠ د.

٦ ــ **وهج الجمر في تحريم الخمر**: لعمر بن حسن بن دحية الكلبي، موجود بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة تحت رقم ١٣٩ (٢١٨ حديث).

(ب) المصادر المطبوعة:

١ ــ **الإحاطة في أخبار غرناطة**: لابن الخطيب، ت محمد عنان، مكتبة الخانجي القاهرة.

٢ ــ **أزهار الرياض في أخبار عياض**: لأحمد المقري، ت اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية والإمارات المتحدة.

٣ ــ **الإشراف على مذاهب العلماء**: لابن المنذر، ت أحمد حنيف، دار طيبة ــ الرياض.

٤ ــ **إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين**: لعبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، ت د. عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
٥ ــ **الأعلام**: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت.
٦ ــ **اقتباس الأنوار واختصار اقتباس الأنوار**: لأبـي محمد الرشاطي، وابن الخراط الإشبيلـي، ت المستشـرق إيمـوليـو مـولينـا وخـاثينـو بيـلا، المجلـس الأعلـى للأبحاث العلمية ــ مدريد.
٧ ــ **الأم**: للإمام الشافعي، طبعة بولاق ــ القاهرة.
٨ ــ **إنباه الرواة على أنباه النحاة**: لعلي القفطي، ت أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربـي ــ القاهرة.
٩ ــ **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**: للكاساني، ت محمد درويش، مؤسسة التاريخ العربـي ــ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
١٠ ــ **البداية والنهاية**: لابن كثير، توثيق عبد الرحمن اللاذقي، دار المعرفة ــ بيروت.
١١ ــ **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**: للضبـي، دار الكتاب العربـي.
١٢ ــ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: للسيوطي، ت أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ــ بيروت.
١٣ ــ **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**: للفيروزآبادي، ت محمد المصري، مركز المخطوطات والتراث.
١٤ ــ **البيان المغرب في أخبار المغرب**: لابن عذاري، ت ج س كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة لبنان، الطبعة الخامسة ١٤١٨هـ.
١٥ ــ **تاريخ ابن خلدون**: للعلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨م.
١٦ ــ **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**: لابن الفرضي، اعتناء عزت الحسيني، مكتبة الخانجي ــ القاهرة.
١٧ ــ **تاريخ افتتاح الأندلس**: لابن القوطية، ت عبد الله الطباع، مؤسسة المعارف ــ بيروت.
١٨ ــ **تاريخ القضاء في الأندلس**: لمحمد عبد الوهاب خلاف، المؤسسة العربية الحديثية ــ القاهرة.

١٩ ـ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**: للقاضي عياض، ت سعيد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

٢٠ ـ **التعريفات**: للجرجاني، ت إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٩٨م.

٢١ ـ **التكملة لكتاب الصلة**: لابن الأبار، ت عبد السلام الهراس، دار المعرفة ـ الدار البيضاء.

٢٢ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: لابن عبد البر، ت أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي ـ الرياض.

٢٣ ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**: للحميدي، ت حمد الطنجي، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

٢٤ ـ **جمهرة أنساب العرب**: لابن حزم، ت عبد السلام هارون، تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٥ ـ **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**: للثعالبي، ت محمد الفاضلي، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢٦ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**: لابن القيم الجوزية.

٢٧ ـ **حاشية الخرشي**: ضبط زكريا عميرات، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٨ ـ **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**: دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م.

٢٩ ـ **روح المعاني**: للألوسي، ت محمد الأمد وعمر السلامي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٣٠ ـ **روضة الطالبين وعمدة المفتين**: للنووي، المكتب الإسلامي.

٣١ ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار**: ت إحسان عباس، مكتبة لبنان ـ بيروت.

٣٢ ـ **سنن ابن ماجه بشرح السندي**: ت خليل شيحا، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٧م.

٣٣ ـ **سير أعلام النبلاء**: للذهبي، ت شعيب الأرناؤوط وأكرم البوشي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م.

٣٤ ـ **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**: للشيخ محمد مخلوف، مصورة دار الفكر ـ بيروت.

٣٥ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: لابن العماد، مكتبة القدسي ـ القاهرة.

٣٦ ـ **الشرح الكبير**: لابن قدامة، ت عبد الله التركي، طبعة هجر السعودية.

٣٧ ـ **صحيح البخاري ضمن فتح الباري**: مكتبة دار السلام ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٣٨ ـ **صحيح مسلم بشرح النووي المسمى بالمنهاج**: ت خليل شيحا، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٩٧م.

٣٩ ـ **الصلة**: لابن بشكوال، اعتناء عزت الحسيني، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

٤٠ ـ **طبقات الشافعية**: للسبكي، ت محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية.

٤١ ـ **طبقات الفقهاء**: للشيرازي، تصحيح: الشيخ خليل الميس، دار القلم ـ دمشق.

٤٢ ـ **طبقات المفسرين**: لأحمد الداوودي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٤٣ ـ **طبقات النحويين واللغويين**: لمحمد الزبيدي، ت أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ـ القاهرة.

٤٤ ـ **طوق الحمامة في الألفة والأُلَّاف**: لابن حزم، ت الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ـ القاهرة الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

٤٥ ـ **العبر في خبر من غبر**: للذهبي، ت محمد زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٦ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: لابن حزم، ت إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، منشورات عكاظ الطبعة الأولى.

٤٧ ـ **فهرسة ابن خير**: لمحمد بن خير، ت المستشرق فتسشكة قداره، مكتبة المثنى ـ بغداد.

٤٨ ـ **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية**: للخشني، اعتناء عزت الحسيني، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

٤٩ ـ **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير، ت عمر تدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٥٠ ـ **كتاب الأصل المعروف بالمبسوط**: لابن الحسن الشيباني، تعليق أبو الوفاء الأفغاني، عالم الكتب.
٥١ ـ **مجلة المورد**: المجلد ١٧، العدد الأول.
٥٢ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: لابن عطية الأندلسي، ت المجلس العلمي بفاس، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.
٥٣ ـ **المدونة الكبرى**: لسحنون، مطبعة السعادة ـ القاهرة.
٥٤ ـ **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**: لليافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.
٥٥ ـ **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**: للبناهي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.
٥٦ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: للسيوطي، تعليق محمد بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البيجاوي، الطبعة الثالثة، دار التراث ـ القاهرة.
٥٧ ـ **مسند الإمام أحمد**: المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٥٨ ـ **المصباح المنير**: أحمد الفيومي، بعناية يوسف محمد، المكتبة العصرية ـ بيروت.
٥٩ ـ **مصنف ابن أبي شيبة**: الدار السلفية ـ الهند.
٦٠ ـ **مصنف عبد الرزاق الصنعاني**: ت حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٦١ ـ **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**: لابن خاقان، ت محمد شوابكة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٦٢ ـ **المعجب في تلخيص أخبار العرب**: لعبد الواحد المراكشي، ت محمد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة ١٩٦٣م.
٦٣ ـ **معجم الأدباء**: لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٦٤ ـ **معجم البلدان**: لياقوت الحموي، ت فريد عبد العزيز، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٦٥ ـ **المعجم المفهرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة**: للحافظ ابن حجر، ت محمد المياديني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٦٦ ـ **معين الحكام على القضايا والأحكام**: للقاضي أبـي إسحاق بن عبد الرفيع، ت محمد بن عيان، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.

٦٧ ـ **المعيار المعرب**: للونشريسي الفاسي، ت جماعة من الفقهاء، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.

٦٨ ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**: لابن حيان، عناية: شالميتا، نشر المعهد الإسباني العربـي للثقافة وكلية الآداب بالرباط.

٦٩ ـ **المقفى الكبير**: للمقريزي، ت محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.

٧٠ ـ **المقنع في علم الشروط**: لابن مغيث الطليطلي، ت المستشرق فرانشيسكو سادابا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ـ مدريد.

٧١ ـ **المغرب في حلى المغرب**: لابن سعيد، ت شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة.

٧٢ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: لأحمد المقَّري، ت إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت.

٧٣ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: للمبارك بن الأثير، بإشراف علي بن حسن الحلبـي، دار ابن الجوزي ـ الرياض.

٧٤ ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**: لإسماعيل البغدادي، طبعة بالأوفست، من الطبعة الأولى، المكتبة الإسلامية ـ طهران ١٩٥٧م.

٧٥ ـ **وفيات الأعيان**: لابن خلكان، ت إحسان عباس، دار صادر ـ لبنان.

❑ ❑ ❑

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

ملحق

تحقيق رسالتين للقاضي منذر

● ● ●

مَكْتَبَةُ نِظَامْ يَعْقُوبِي الخَاصَّةِ ـ البَحْرَيْن
سِلْسِلَةُ أَعْلَامٍ وَأَقْلَامٍ
(١)

أَدِيبُ عُلَمَاءِ دِمَشْق

الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ البِيطَار

حَيَاتُهُ وَإِجَازَاتُهُ

بقلم
مُحَمَّد بْن نَاصِر العَجْمِيّ

دَارُ البَشَائِرِ الإِسْلَامِيَّة

مكتبة نظام يعقوبي الخاصة - البحرين
سلسلة دفائن الخزائن
(٤)

وصية

الشيخ الفقيه الحافظ أبي الوليد الباجي الأندلسي

(ت ٤٧٤ هـ)

لولديه

تم تحميله يوم السبت ٧ / ١٢ / ١٤٤٠ هـ
وبقربي سلمى بنت عبدالعزيز العنزي أصلحها الله وحفظها تلعب
وتحاول أخذ الكتاب مني
ولكن هيهات :)

قدّم لها وحقّقها

عبداللّطيف بن محمّد الجيلاني

دار البشائر الإسلامية

